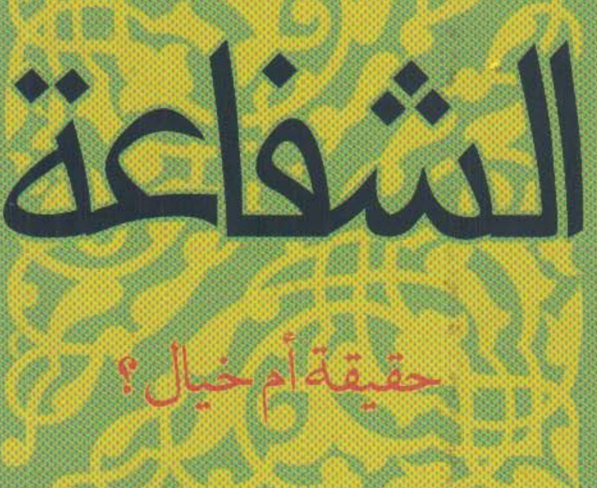






الشفاعة

حقيقة أم خيال؟

تأليف

آية الله السيّد حسن طاهري الخرّم آبادي

نقله إلى العربية: رعد الحجّاج

مركز التحقيقات والدراسات العلمية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

سلسلة بحوث كلامية مقارنة (٥)

الشفاعة

حقيقة أم خيال؟

بحث علمي يثبت صحة طلب الشفاعة
من الأنبياء والأولياء في حياتهم وبعد مماتهم
ويستقصي الروايات الواردة في ذلك

تأليف
آية الله السيّد حسن طاهري الخرّم آبادي

نقله إلى العربية
رعد الحجّاج

سر شناسه	: طاهری خرم آبادی، حسن ، ۱۳۱۷ ـــ ...
عنوان قراردادی	: شفاعت. عربي.
عنوان و نام پديدآور	: الشفاعة حقيقة أم خيال؟ بحث علمي يثبت صحة طلب الشفاعة.../ تأليف حسن طاهري الخرم آبادي/ نقله الى العربية رعد الحجاج.
مشخصات ناشر	: طهران، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، المعاونية الثقافية، مركز التحقيقات والدراسات العلمية، ۱٤۲۹ ق = ۲۰۰۸ م =۱۳۸۷.
مشخصات ظاهری	: [۱۸۸] ص .
فروست	: سلسلة بحوث كلامية مقارنة :٥ .
شابك	: ۹۷۸-۹٦٤-۱٦۷-۰۱٤-۸
وضعيت فهرست نويسی	: فيپا
يادداشت	: عربی.
يادداشت	: كتابنامه: ص. [۱۷۹] ـــ ۱۸۱ ؛ همچنين به صورت زيرنويس.
موضوع	: شفاعت.
موضوع	: شفاعت ـــ جنبه‌های قرآنی.
موضوع	: شفاعت ـــ احاديث.
شناسه افزوده	: حجاج ، رعد ، مترجم.
شناسه افزوده	: مجمع جهانی تقريب مذاهب اسلامی، معاونت فرهنگی، مركز مطالعات و تحقيقات علمی.
رده بندی کنگره	: ۱۳۸٦ ۷۰٤۳ ش ۱۷ ط/ ۷ / ۲۳۲ BP
رده بندی ديويی	: ۲۹۷ /٤٤
شماره كتابشناسی ملی	: ۱۱٦۳۰٦۹

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

- اسم الكتاب : الشفاعة : حقيقة أم خيال؟
- تأليف : السيّد حسن طاهري الخرّم آبادي
- نقله الى العربية : رعد الحجّاج
- تقويم النص : شوقي شالباف
- تنضيد الحروف : عصام البدري
- تصميم الغلاف : محمد تقي مهجور
- الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، المعاونية الثقافية، مركز التحقيقات والدراسات العلمية.
- الطبعة: الأولى ـــ ۱٤۲۹ هــ ق / ۲۰۰۸ م
- الكمية : ۲۰۰۰ نسخة
- السعر : ۲٤۰۰۰ ريال
- المطبعة : نگار
- شابك : ۹۷۸-۹٦٤-۱٦۷-۰۱٤-۸
- العنوان : الجمهورية الإسلامية في ايران ـــ طهران ـــ ص . ب : ٦۹۹٥ ـــ ۱٥۸۷٥

تلفكس : ١٤ ـــ ٨٨٣٢١٤١١ ـــ ٢١ ـــ ٠٠٩٨

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾

طه: ١٠٩

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَاتُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾

النجم: ٢٦

المقدّمة

تعتبر مسألة «الشفاعة» من المسائل التي احتلّت مكانةً مهمةً في الفكر الإسلامي، ومساحةً كبيرةً من اهتمامات المسلمين على مدىٰ تاريخ البحث الفكري، حتّى انعكست آثارها علىٰ حياتهم العامة.

فبقدر ما كانت تعدّ هذه المسألة عاملاً مساعداً علىٰ توثيق الصلة بين الإنسان المسلم وربّه من جهة، وبينه وبين الرموز الإسلامية المقدّسة من جهة أخرىٰ، كذلك تعتبر نوعاً من التكريم والتجليل لعظماء الإسلام، وعلى رأسهم نبيّنا الأكرم ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، وإبداء الاحترام إليهم في جميع الأحوال.

وهذا الوعي المتجذّر في نفس المسلم لابدّ وأن يغدو مصدر إلهام له وهو يشقّ طريقه في الحياة، ويحاول من خلاله أن يستوعب الدروس من الآثار الطيّبة التي خلّفها أولئك الأوائل، ومن سار على نهجهم وطريقتهم الصالحة.

ولا شكّ أنّ هذا يفسّر لنا اهتمام الإسلام الشديد بهذه المسألة، وعنايته الفائقة بها، لدرجة أن عدّت إحدىٰ الحقائق القرآنية الواضحة، بسبب ما وردت بخصوصها الآيات العديدة، والعشرات ـ إن

لم تكن المئات ـ من الروايات والأخبار الشريفة.

لكنّ الملاحظ أنّ مسألة «الشفاعة» لم يبتدعها المسلمون، وليست هي بالمسألة الجديدة، وإنّما هي قديمة بقدم وجود الإنسان.

فمنذ أن لامست قدما الانسان الأرض، وارتكب ذنباً، عرف أنّ ثمة أشياء تصحّ أن تكون شافعة مشفّعة له لتصرف عنه عقوبة ما اقترفه، ويمكن أن تشكّل فرصةً جديدةً للتوبة وتجاوز الأمر. ففي قصة آدم عليه السلام وإسكانه وزوجه الجنّة دلالة واضحة على ما ذكرنا، فلمّا أزلّهما الشيطان وأُخرجا منها على إثر ذلك، وأُهبطا إلى الأرض، لم يكن أمام آدم عليه السلام إلّا البحث عن شفيع يمكنه من خلاله أن يعيد منزلته عند ربّه الذي أكرمه وعدّله ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة/٣٧.

كما أنّ في قصص الأنبياء السابقين دلالات واضحة على ذلك.

وهذا ما يفسّر اهتمام الأديان السماوية السابقة الأخرىٰ بهذه المسألة وإن كانت علىٰ درجات مختلفة. ففي الوقت الذي نرى اليهود يقدّسون أحبارهم، ويرون لهم دوراً في شفاعتهم، ويعتقدون أنّ الله سبحانه لايشفع إلّا لهم! نجد النصارىٰ يؤمنون بشفاعة المسيح عليه السلام لهم.

والإسلام، وانطلاقاً من الواقعية والشمولية التي يحملهما، قد وسّع من دائرة «الشفاعة» وأعلن أنّ رحمة الله سبحانه أوسع ممّا يظنّ الناس، يقول الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتّىٰ يطمع إبليس في رحمته».

وأعلن أيضاً أنّ الشفاعة لا تقتصر على شخص النبي وحده ﷺ، بل ثمة شفعاء آخرون أيضاً، مثل: أهل بيته عليهم السلام، والملائكة، والعلماء، والشهداء والقرآن، والمؤمن... يقول ﷺ: «... والشفاعة للأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة...»، ويقول أيضاً: «وفي المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، وأقلّ المؤمنين شفاعةً من يشفع لثلاثين إنساناً...».

فالتشفّع بأولياء الله سبحانه وبكتابه المنزل يشكّل بمجموعه عملية ارتقاء روحية سامية، الهدف منها تعزيز الصلة بالسماء من جهة، وتكريس حالات الرفعة في السلوك الإنساني، من خلال تهذيب النفس وتطهيرها من الأدران والآثام من جهة أخرىٰ.

وهدفٌ بهذا المستوىٰ لاتنكره الفطرة، ولايرفضه العقل، ولايخالف منطق الإيمان الذي جاء به نبيّنا الأعظم ﷺ.

ورغم كلّ ذلك، وعشرات الروايات التي وردت بخصوص هذه المسألة، فإنّها بقيت تعاني وعلىٰ مدىٰ عصور من إشكالات وتساؤلات وشبهات يثيرها البعض علىٰ صعيد تحديد مفهومها وحقيقتها، وفي وقوعها وتحقّقها خارجاً.

فثمة من ينفي وقوع الشفاعة أصلاً، ويعتقد أنّها فكرة «مبتدعة» مستوحاة من حالة يعيشها الإنسان في الواقع الاجتماعي، حيث تؤثّر علاقات الصداقة والقرابة لذوي النفوذ، فتؤدّي ظلماً إلى رفع ما لايجب رفعه، أو تكريم ما لاينبغي تكريمه.

وثمة من ينفيها باعتبارها مثالاً صادقاً على تجرّي الإنسان على ارتكاب المعصية، طالما يجد أنّ نتيجة الشفاعة هي أنّ البريء والمذنب في النهاية سواء!

كما وأنّ هناك من ينفي حصولها من غير الله سبحانه وإن كانت بإذنه، باعتبار أنّ الاعتقاد بها هو نحو من أنحاء الشرك!

وأيضاً هناك من يحصر وقوعها من الشفيع إذا كان حيّاً، فلو استشفع الإنسان بالنبي ﷺ بعد موته، فهذا من الشرك قطعاً!

وهذا الضرب من الاعتقادات يعود إلى سببين:

الأول: نشاط أعداء الإسلام في مجال بثّ الإشاعات، وإلقاء الشبهات، من أجل هزّ ثقة المسلم بدينه وعقائده، ومصداقية كتابه المقدس وأحاديث نبيّه الاكرم ﷺ.

والثاني: الخطأ في «الرؤية» التي يتبنّاها البعض، فاختلط عليه الأمر، وصار يرىٰ الحقّ باطلاً، والباطل حقّاً!

ولا شكّ أنّ وجود هذا الاختلاف يلقىٰ ترحيباً كبيراً في الدوائر الغربية، والمحافل التبشيرية، إذ وجدوه بمثابة حافز مثير لإذكاء الفتنة في الساحة الإسلامية، وإشعال نار الفرقة بين أبناء هذه الأمة، للحيلولة دون حدوث وحدة ولو على المدى البعيد.

لقد وجد الاستعمار الطامع بثروات بلاد الإسلام الفرصة سانحة لإمعان الاختلاف والاقتتال بين طوائف المسلمين حول هذه المسألة، فشنّ حملاته ضدّ الشيعة تارة، وتارة أخرىٰ ضدّ أهل السنّة، لغرض

ضرب الإسلام وقيمه وعقائده وتدميره بالكامل.

إلّا أنّه لم يستطع تمرير مخططاته على هذا الصعيد، بفضل وجود العلماء العاملين، الذين قاموا بالردّ على جميع ما يلقيه من شبهات ومزاعم، وبيان حقيقة الأمر.

ولعلّ من أبرز هؤلاء آية الله السيد حسن طاهري الخرّم آبادي، الذي لم يأل جهداً في سبيل المساهمة في صدّ هذه الهجمة البربرية التي يقوم بها الغرب ضد ثقافتنا ورسالتنا الخالدة.

وهذا الكتاب الماثل بين يديك ـ عزيزنا القارئ ـ والذي يحمل الرقم (٥) ضمن سلسلة بحوث كلامية مقارنة، التي يرعاها مركزنا العلمي التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، يدخل في هذا الإطار، حيث أراد مؤلّفه بيان حقيقة الشفاعة بالأدلّة الشرعية المعتبرة لدى الشيعة الإمامية وأهل السنّة، ضمن بحث علمي مقارن، من دون انحياز أو تهميش لفئة على حساب فئة أخرىٰ.

لقد أراد مؤلّفه دفع ما قيل من أوهام وتصوّرات خاطئة حول هذه المسألة، وردّ ما أُثير من مزاعم لا أساس لها من الصحة، وعلىٰ أساس كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ؛ انتصاراً لعقائد المسلمين، ولم ينهض للشيعة خاصة، مؤكّداً على أنّ هذه المسألة إسلامية أكثر ممّا هي شيعية.

وهذا ما دعا مركزنا ـ كما هو ديدنه ـ إلىٰ أن يصبّ اهتمامه في هذا الكتاب، ويرعىٰ ترجمته وطبعه ونشره باللغة العربية، ليتسنّىٰ للناطقين بهذه اللغة الفرصة لمطالعته، والاستفادة ممّا فيه من الأفكار

والمناقشات الجديرة بالمطالعة علىٰ رغم صغر حجمه وعدد صفحاته.

وإذ نثمّن جهود المؤلّف ضمن محاولاته الهادفة إلى تقديم الأفضل علىٰ هذا الصعيد، وتعزيز فكرة الوحدة في أذهان النخبة المثقّفة، نتقدّم بالشكر الجزيل إلى الأخ الفاضل رعد الحجاج على حسن تعاونه على صعيد ترجمته إلى اللغة العربية.

كما لا يفوتنا تقديم الشكر إلى الأخ الفاضل شوقي محمد الذي قام بالإشراف على مراحل تحقيقه، من تقويم نصّه وتصحيحه، ومتابعته فنّياً، وإلى كلّ الإخوة العاملين الذي شاركوا في طبع ونشر هذا الكتاب، وإخراجه بأفضل صوره.

هذا ويسرّنا أن نجدّد دعوتنا إلى جميع مصلحي هذه الأُمة ومثقّفيها في المساهمة الجادّة لخدمة ديننا الحنيف، وتعزيز المودّة والتعاون بين أبناء أمتنا المجيدة، من خلال تقديم المشاريع الثقافية التي تصبّ في هذا الاتجاه، من أجل خير الأمة وتقدّمها في الطريق الصحيح الذي أراده لها النبي الأكرم ﷺ.

أحمد المبلّغي

مسؤول مركز التحقيقات والدراسات العلمية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية

الفصل الأول

تعريف الشفاعة وأقسامها

تعريف الشفاعة وأقسامها

ثمة إشكالات مثارة من قبل البعض علىٰ أصل الشـفاعة، وهـي عبارة عمّا يلي:

الإشكال الأول: الاعتقاد بالشفاعة يوجب التجرّي وتحفيز الناس على المعصية، فعندما يعتقد الإنسان أنّه سيحظىٰ بالشفاعة يوم القيامة رغم كلّ ذنوبه فمن الطبيعي أن يتمادىٰ في غيّه، ويؤدّي به الأمل في الحصول على الشفاعة إلىٰ عدم إعارة القوانين والأحكـام والتـعاليم الإسلامية أية أهمية، ويتصوّر أنّ بوسعه ترك الصلاة والصيام وعـدم أداء الواجبات.

الإشكال الثاني: يلزم من الاعتقاد بالشفاعة أن نقول: إنّ الله تعالىٰ يتأثّر بإرادة الشفيع؛ فبرغم أنّ إرادته قائمة علىٰ سوق المجرمين إلىٰ عذاب جهنّم، لكنّ الشفيع يؤثّر فيه ويقلب إرادته، بينما نـعتقد أن لا شيء يؤثّر علىٰ إرادته تعالىٰ، ولا يجد الانفعال طريقه إليه.

الإشكال الثالث: الشفاعة نوع من التمييز والاستثناء. حيث جعل

الله قوانين وأحكاماً، وحلالاً وحراماً، ووضع واجبات ومحرّمات، وأبلغ ذلك إلىٰ جميع خلقه؛ فمنهم من عمل بها ومنهم من لم يعمل، ومن لم يعمل هم العصاة والمذنبون، وقد أعدّ الله لهم عقاباً وعذاباً. وبناء علىٰ هذا، فيجب معاقبة كافّة المذنبين، وإن لم يعاقب الباري جلّ وعلا قسماً منهم فهذا نوع من الاستثناء والتمييز المقيت، والظلم الذي ينزّه الله عن القيام بمثله.

الإشكال الرابع: أنّ المسألة لاتخرج عن حالتين: إمّا أن يكون عقاب المجرم متطابقاً مع العدل أو متطابقاً مع الظلم. فإن كان ظلماً لكان أساس جعله في غير محلّه، ولما وجب جعله أساساً، وإن كان عدلاً يصبح عدم إجراء العقوبة وغضّ النظر عن ذنب المجرم ظلماً؛ وبناءً علىٰ هذا، فإنّ أحد هذين الشقّين ظلم، وكلاهما بعيد عن ساحة الباري جلّ وعلا.

وهناك أيضاً في باب الشفاعة مطالب أخرىٰ، إلّا أنّ عمدة الإشكالات هي ما ذكرناها[1].

الشفاعة في المجتمعات البشرية

تجري الشفاعة بين أبناء البشر أيضاً، إذ كثيراً ما يحصل أنّه لو ارتكب شخص جرماً ما، فلأجل الفرار من عقوبة جريمته يتوسّل بمن له جاه ونفوذ في السلطة الحاكمة أو القوة القضائية، ويطلب منه

---

١. سيأتي الردّ عليها ومناقشتها لاحقاً.

التوسّط له، فيقوم ذلك الشخص المتنفّذ بالوساطة للحدّ من إجراء العقوبة على المجرم؛ فتارةً يتمتّع الوسيط بقدرة تفوق قدرة القوة القضائية المعنية، وتارةً يؤثّر الوسيط أو الشفيع علىٰ عواطف الحاكم بنحوٍ من الأنحاء؛ كأن يتحدّث له عن حياة المجرم ومدىٰ بؤسه وشقائه ليثير عواطفه، وتارةً ثالثة يكون للشفيع صداقة وصحبة مع صاحب القرار، فيراعي أحدهما مشاعر الآخر، ويداري علاقة الصداقة القائمة بينهما. وعلىٰ أيّة حال، يؤثّر الشفيع علىٰ صاحب القرار في الشفاعة البشرية بأحد تلك العلل ممّا يؤدّي إلىٰ قلب إرادته وقراره. وفي موارد من هذا القبيل يحاول الشفيع منع تطبيق القانون بحقّ صديقه.

والطريف أنّ بعض الإشكالات التي ذكرناها تعود إلىٰ تصوّر أنّ الشفاعة يوم القيامة تحصل علىٰ هذه الشاكلة، والحقيقة أنّ الإشكال وارد علىٰ هذا النوع من الشفاعة؛ لأنّها تملّص من إجراء القوانين وإحقاق الحقّ.

فعلىٰ سبيل المثال، من قام بالزنا وثبتت الجريمة بحقّه، يكون التوسّط إلى القاضي في عدم إجراء الحدّ عليه تمييزاً مرفوضاً قطعاً.

ولا غرو أنّ لنا أن نعترض ونقول: العقوبة الموضوعة لهذه الجريمة لاتخرج عن حالتين: فإمّا هي عدل وإمّا ظلم، فإذا كانت عدلاً كان عدم إجرائها ظلماً، وإن كانت ظلماً لما كان من العدل جعلها، فجعل هذه العقوبة ظلم بنفسه.

وكذا الحال في التحفيز علىٰ ارتكاب الذنب، فإذا أذعـنّا لشـيوع المحاباة والاستشفاع، وقام كلّ شخصٍ بما يحلو له، ثم أتىٰ بوسيطٍ ليشفع له في التجاوز عن خطيئته، والعفو عن جريمته، عاش الناس في مجتمعٍ تسوده المخالفات ولايطبَّق فيه القانون.

وكذلك لو كان للنقود تأثير بالغ في المجتمع، واستطاع المجرمون فعل ما يروق لهم اعتماداً عليها، لم يجد الناس حاجزاً كـبيراً بـينهم وبين ارتكاب الجرائم، ولشاع بينهم الجرم وانتهاك القانون والفرار من العقاب القانوني.

فهناك جملة من السلبيات تترتّب على الشفاعة الباطلة، ولاشكّ أنّ التصوّر بأنّ شفاعة الشفعاء الإلهيّين والأنبياء والأولياء والصلحاء يوم القيامة إلى الباري تعالىٰ هي نفس شفاعة المتنفّذين من البشر إلى السلطة الحاكـمة، قـد تسـبّب فـي طـرح مـثل هـذه الإشكـالات والملاحظات علىٰ مسألة الشفاعة.

إنّ هذا التصوّر الخاطئ بحدّ ذاته يؤكّد علىٰ مسألة مهمة وهي أنّ حقائق كثير من المسائل الإسلامية غير واضحة للأُمة، ومنها مسألة الشفاعة التي تعدّ من الأصول المسلّمة التـي وردت فـيها نـصوص قرآنية صريحة، وأجمع عليها المسلمون، لذا يتحتّم علينا بحث حقيقة الشفاعة، ومراجعة الآيات والروايات في هذا المجال؛ لتتّضح الأبعاد المختلفة لهذا الموضوع.

الشفاعة لغةً واصطلاحاً

قال الراغب الإصفهاني: الشفع: ضمّ الشيء إلىٰ مثله... والشفاعة: الانضمام إلىٰ آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمةً ومرتبةً إلىٰ من هو أدنىٰ، ومنه: الشفاعة في القيامة[١].

إذن، المعنى اللغوي للشفاعة هو انضمام شيء إلىٰ آخر لتكميل بعضهما البعض، ولإعطاء نتيجة أفضل؛ سواء كانا في مرتبةٍ واحدة أم في مرتبتين متفاوتتين، لكنّه يستعمل غالباً في انضمام الأقوىٰ إلى الأضعف، والأعلىٰ إلى الأدنىٰ.

وأمّا المعنىٰ الاصطلاحي لها وما تعارف لدى الناس عنها هو أن يوسّط المجرم أو المتخلّف عن القانون المستحقّ للعقوبة شخصاً ليشفع له في إنقاذه منها، أو يتوسّل من يرغب بالحصول علىٰ منافع مادّية بشخصٍ ليحقّق له أغراضه ومآربه.

أقسام الشفاعة

يمكن تقسيم الشفاعة ـ استناداً إلى المعنى اللغوي لها ـ إلىٰ عدّة أقسام ولو أنّ بعضها لاتعدّ شفاعة بالمعنى الاصطلاحي:

١ ـ الشفاعة التكوينية

إنّ الشفاعة في عالم الخلقة والتكوين هي عبارة عن انضمام القوىٰ

---

١. المفردات: ٢٦٣.

الأقوىٰ في هذا العالم إلى القوى الأضعف للنهوض بها في مسيرة التكامل وأهداف الخلقة: فالشمس تشرق والأمطار تهطل، فتهيّء البذور في باطن الأرض لتوصل قابليتها الكامنة إلىٰ المرحلة الفعلية، فتخرج براعم الحياة من سباتها من تحت الأرض، وهذا ضرب من ضروب الشفاعة؛ لانضمام قوتين إلىٰ بعضهما لتمهيد طريق التكامل أمام القوة الأضعف.

ومن جهة ثانية، فإنّ كافّة الأسباب والعلل التكوينية المنتهية إلىٰ ذات الباري تعالىٰ وسائط بين الله وبين عالم الخلقة والتكوين؛ لنشر رحمته اللامتناهية، ونعمه التي لا تُحصىٰ ولاتُعدّ. وبهذا البيان تكون جميع العلل وعوامل الطبيعة مجرىً للفيض الإلهي، وكلّ سببٍ في الحقيقة هو واسطة لإيصال الفيض ومسبّب لمعلوله؛ وعليه فإنّ كلّ سببٍ وعلّةٍ واسطة وشفيع تكويني في إفاضة فيضِ الوجود ونشر الرحمة الإلهية.

والعلل التكوينية مخلوقة لذات الباري تعالىٰ، وليس لها الاستقلال في الوجود؛ فوجودها مستمدّ من صفاته السامية، وهي منشأ نشر الرحمة وفيض الوجود؛ كالحياة والخالقية والرازقية والرحمانية التي هي منشأ للحياة والرزق والخلق وغيرها.

وبعبارة أخرىٰ: الفيوضات الإلهية مستقاة من الصفات العالية، وجميع أنواع النعم والرحمة تصل إلىٰ ماله قابلية على منح هذه الفيوضات عن طريق مجرىٰ الأسباب والعلل.

وبناءً علىٰ هذا، فالشفيع الحقيقي في بلوغ فيض الوجـود ونشـر الرحمة والنعمة هو ذات الباري تعالىٰ، فهو الشفيع المطلق؛ لأنّه هـو من أوجد الأسباب والعلل، ثم جعلها واسطةً في وصول فيض وجوده وواسع رحمته.

وعلىٰ هذا الأساس، فإذا ما صار موجود غير الله تـعالىٰ شـفيعاً لأحدٍ، سواء في مرحلة التكوين أم في مقام المغفرة والعفو الأُخروي، فكلّ ذلك بإذنه ومن ناحيته.

جاء في الصحيفة السجادية: ***«اللّهم صلّ علىٰ محمدٍ وآله وشفّع في خطاياي كرمك... ولا شفيع لي إليك، فليشفع لي فضلك»***[١].

٢ ـ الشفاعة التشريعية أو شفاعة العمل

هناك نوعان من الضوابط والقوانين التي تربط بين العبد والمولىٰ في كلّ مجتمع:

أحدهما: القوانين التي تقع علىٰ عاتق المجتمع العمل بـها والتـي يكون مسؤولاً إزاءها.

وثانيهما: العقوبات والمكافآت المعدّة لمخالفة تلك القوانـين أو العمل بها؛ لذا وضع إلىٰ جانب كلّ قانون عقوبة لانتهاكـه ومكـافأة للقيام به.

وليس هناك مكافأة أو جائزة في القوانين البشرية ـ باستثناء بعض الموارد النادرة ـ إلّا أنّ القوانـين الإلهـية تـضمّنت وعـوداً بـالثواب

---

١. الصحيفة السجادية: الدعاء ٣١، المقطع ٢٥ و٢٦.

والمكأفاة ووعيداً بالجزاء والعقاب علىٰ حدٍّ سواء.

فلأجل سعادة الإنسان وكماله قد وضع الله تعالى شيئين:

أحدهما: أصل الحكم والقانون.

والآخر: العقاب لمخالفته والثواب للعمل به.

ولبلوغ السعادة ونيل الكمال الإنساني المنشود، وبتعبير آخر: نيل الثواب الأُخروي والنجاة من العقاب الإلهي، فإنّ الطريق الأمثل والصحيح هو العمل بالأوامر الإلهية واتّباع الأنبياء والقادة الإلهيّين الذين يمثّلون واسطةً في تبليغ هذه الأحكام والقوانين السماوية، فمن اقتفىٰ أثر هؤلاء القادة الإلهيّين وعمل بالقوانين والتعاليم الالهية، نال أنواع الثواب، وبلغ الكمالات المادّية والمعنوية، وصان نفسه عن العقاب والجزاء المترتّب علىٰ مخالفة تلك الأحكام والقوانين.

والنقطة الأخرىٰ المهمة هي أنّ الثواب وآثار الأعمال لاتختصّ بعالم الآخرة فقط، بل تشاهد الآثار الطيّبة أو السيّئة لبعض الأعمال الإلهية في هذا العالم أيضاً؛ أي فضلاً عن العقاب أو الثواب في عالم الآخرة المتأتّي من المعصية أو الطاعة تُرى الآثار الحسنة أو السيّئة لتلك الأعمال في هذا العالم كذلك.

إنّ اتّباع القادة الإلهيين والعمل بالواجبات والتعاليم الإلهية هو نوع من الشفاعة أيضاً، ففي حال انضمامها إلى الإنسان توجب نيل السعادة والكمال الإنساني، وتوجب صون الإنسان من العقاب، وتنتهي به إلى الثواب والرضوان الإلهي.

وعلىٰ ضوئه يمكن أن يطلق علىٰ هذا النوع من الشفاعة: الشفاعة التشريعية؛ لأنّ التشريع والتقنين هو الشفيع والوسيط في بلوغ الإنسان الكمال ونيل السعادة الدنيوية والأُخروية. كما يمكن أن تسمّىٰ شفاعة العمل أيضاً؛ لأنّ العمل صار شفيعاً للإنسان، فخلّصه من العذاب والعقاب، وأوصله إلى الثواب.

وتطلق كلمة (الشفيع) في الروايات علىٰ طاعة الله أحياناً، حيث قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: ***«فاجعلوا طاعة الله... شفيعاً»***[1].

وبناءً علىٰ هذا، فإنّ طاعة الله بنفسها شفيع، إذ يبلغ الإنسان بها مراقي الكمال الإلهي، وينال بواسطتها مراتب السعادة التي يستحقّها.

واستعملت كلمة «الشفيع» في القرآن الكريم أيضاً، فعندما يعمل الشخص أو المجتمع بالقرآن يكون عمله به شفيعاً له يوم القيامة. وقد عبِّر عن هذا المطلب في الروايات بعبارات مختلفة، منها:

«الشفعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونبيّكم، وأهل نبيّكم»[2].

٣ ـ شفاعة القيادة

إنّ جميع الأعمال التي يقوم بها الإنسان في هذا العالم تتجسّم وتظهر بشكلها الحقيقي يوم القيامة، ولايقتصر ذلك على الأعمال، بل

---

١. نهج البلاغة: خطبة رقم ١٩٨ ضبط صبحي الصالح.

٢. بحار الأنوار ٨: ٤٣.

حتّى العلاقات المادية والمعنوية بين أفراد البشر تتّخذ في ذلك العالم صورةً وشكلاً خارجياً.

فإذا ما تسبّب شخص في هداية غيره في الدنيا تتبلور بينهما علاقة القائد والتابع وتظهر للعيان صورة ذلك يوم القيامة، وإذا كان الشخص إماماً وهادياً في هذا العالم يظهر بصورة إمام وقائد في الآخرة، فيما يظهر المهتدي بصورة مأموم وتابع، ويوصل أئمة الحقّ أتباعهم إلى السعادة الأبدية يوم القيامة، ويغدون شفعاء لهم في بلوغ الكمالات والنِعَم الإلهية، فيما يقود أئمة الباطل الذين تسبّبوا في إغواء أنصارهم نحو العقاب العادل وجزاء الأعمال، فهم في الحقيقة شفعاؤهم في بلوغ العذاب الإلهي.

وعلىٰ هذا الأساس، اعتبرت «شفاعة القيادة» إحدىٰ أقسام الشفاعة، قال الله تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[1]، وقال في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[2].

وعلىٰ ضوء هذا، فالقادة الحقيقيون شفعاء لأتباعهم يوم القيامة، حيث يسوقونهم إلى الجنّة والنِعَم الإلهية الوافرة، وكذلك قادة الضلال كفرعون وأمثاله شفعاء لأنصارهم في إيرادهم جهنّم؛ وكلاهما تجسّم للقيادة والتبعية في هذا العالم.

---

١. الإسراء: ٧١.

٢. هود: ٩٨.

إنّ التبعية في هذا العالم اختيارية، فيكون الإنسان حرّاً في انتخاب نوع القيادة التي يرغب فيها، لكنّها غير اختيارية في عالم الآخرة، بمعنىٰ أنّه ليس من حقّ الإنسان يوم القيامة الإعراض عمّن أطاعه في دار الدنيا وعدم اتّباعه؛ ذلك لأنّ التبعية آنذاك ستكون بشكل تجسّم عيني وخارجي للحركة في هذا العالم.

هذا وقد تناولت الروايات هذا النوع من الشفاعة أيضاً، وفيما يلي نشير إلىٰ بعضٍ منها:

(أ) روي عن النبي ﷺ أنّه قال:

«فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع، وماحلٌ مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ علىٰ خير سبيلٍ، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان»[1].

والمقصود من ذكر هذا الحديث على العموم هو التأكيد علىٰ قوله: «ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»، حيث أُشير إلىٰ شفاعة القيادة في هذه الجملة بصراحة؛ لأنّ من جعل القرآن له إماماً وقائداً كان قائده إلى الجنّة يوم القيامة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلىٰ جهنّم آنذاك، هذا هو تجسّم القيادة والتبعية في هذه الدنيا، وهو من مصاديق الشفاعة.

---

١. أصول الكافي ٢: ٥٩٩ كتاب فضل القرآن ح٢.

(ب) قول الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[١]، قال: *«أنذر بالقرآن من يرجون الوصول إلىٰ ربّهم ترغبهم فيما عنده، فإنّ القرآن شافع مشفّع لهم»*[٢].

(ج) روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«تعلّموا القرآن، فإنّه شافع يوم القيامة»[٣].

(د) وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«واعلموا أنّه مشفّع وقائل مصدّق، وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه»[٤].

وبناء علىٰ ما تقدّم فإنّ لشفاعة القرآن تتمّ بالشكل التالي: من اقتدىٰ به وعمل به في دار الدنيا وجعله هادياً وقائداً له، تجسّد هذا الارتباط بشكلٍ خارجي وقاده القرآن إلى الجنّة ومراقي الكمال والنِعَم الإلهية اللامتناهية يوم القيامة، كما أنّ الإعراض عنه يجرّ إلىٰ سوق الإنسان إلىٰ جهنم في الدار الآخرة.

وفي هذا القسم من الشفاعة الذي يوضّح أبعاد تجسّم القيادة، ربّما يكون القائد والإمام لجماعةٍ في عالم الآخرة يبحث بدوره عن قائدٍ وإمام آخر؛ لذا سيكون النبي صلى الله عليه وآله قائداً لجميع الأئمة المعصومين عليهم السلام

---

١. الأنعام: ٥١.

٢. مجمع البيان ٤: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

٣. مسند أحمد بن حنبل ٥: ٢٥١.

٤. نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٧٦ ضبط صبحي الصالح.

وقادة الحقّ الآخرين؛ لأنّه في هذا العالم قائد لكلّ الأئمة عليهم السلام، فلا يشفع قائد وإمام بمقدار شفاعة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله. وهناك روايات في هذا المجال سنشير لها في البحوث المقبلة إن شاء الله تعالىٰ.

٤ ـ التوبة

تعدّ التوبة والإنابة إلى الله تعالىٰ بشروطها الخاصة من جملة الأسباب التي تعين الشخص المذنب لتجعله مستعدّاً لشمول مغفرة الحقّ له بعد إيصاله إلىٰ مرحلة الكمال. وقد أُطلقت كلمة «الشفيع» على التوبة في جملة من الروايات.

فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله:

ـ «*لا شفيع أنجح من التوبة*»[١].

ـ «*لا شفيع أنجح من الاستغفار*»[٢].

ـ «*لا شافع أنجح من الاعتذار*»[٣].

والسبب في أنّ التوبة أنجح من كلّ شفيع آخر:

أولاً: لأنّها من «الشفعاء» الذين يُضمّون إلى الإنسان في هذا العالم، وبناءً على الوعد الإلهي فإنّ المغفرة تشمل التائبين: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً**﴾[٤].

---

١. وسائل الشيعة ١١: ٢٦٥.

٢. غرر الحكم ٢: ٨٤٠.

٣. المصدر السابق.

٤. طه: ٨٢.

ثانياً: لأنّ الشفاعة توبة ذات آثار عامة، وهي مؤثّرة في كافة أنواع الذنوب حتّىٰ في الكفر والشرك؛ بحيث لو تاب المشرك والكافر وأناب إلى الله تعالىٰ وأسلم فستشمله المغفرة الإلهية قطعاً.

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللّٰهَ لَايَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1]، فالمراد به: من مات مشركاً دونما توبة وإنابة فلا تشمله المغفرة الإلهية، وأمّا الذنوب الأُخرى الصادرة ممّن مات مسلماً موحّداً فمن الممكن أن تُغفر له ويُصفح عنه حتّىٰ مع عدم التوبة.

ثالثاً: لأنّ التوبة بالشروط المذكورة تُحدث انقلاباً باطنياً لدى الشخص العاصي وتؤدّي إلىٰ إصلاحه، فتعمل التوبة علىٰ تلافي ذنوبه السابقة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا السياق: «*ثمرة التوبة استدراك فوارط النفس*»[2].

٥ ـ أدعية الأنبياء والأولياء والمؤمنين

من أقسام الشفاعة الأخرى التي تتحقّق في هذا العالم: أدعية الأنبياء والملائكة وأولياء الله والمؤمنين، بحيث لو انضمّت إلى الإنسان في هذا العالم ربّما أدّت إلى المغفرة الإلهية.

وفي القرآن آيات كثيرة تحكي عن هذا القسم من الشفاعة، ففي قصة النبي يوسف عليه السلام، لمّا ندم أبناء يعقوب عليه السلام علىٰ عملهم أقبلوا علىٰ أبيهم قائلين: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾

---

١. النساء: ١١٦.

٢. مستدرك الوسائل ١٢: ١٣٠ باب ٨٦.

فأجابهم أبوهم قائلاً: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وكما قال القرآن الكريم بحقّ نبي الإسلام ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[2].

وقال أيضاً في الملائكة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3].

وقال في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[4].

إنّ دعاء الأنبياء والأولياء والملائكة والمؤمنين في ضوء المعنى اللغوي للشفاعة، وفي ضوء انضمامه إلى الشخص المذنب فيخلّصه من آثار وعواقب ذنوبه هو نوع من الشفاعة، لكن من ناحية إطلاق لفظ «الشفيع» لم نعثر في الروايات علىٰ موردٍ عُبِّر فيه عن هذه الوسيلة بالشفاعة وأنّها من وسائل المغفرة، في حين استعمل لفظ «الشفيع» في موارد أخرىٰ من قبيل التوبة والعمل وغيرهما.

---

١. يوسف: ٩٧ و٩٨.

٢. النساء: ٦٤.

٣. الشورىٰ: ٥.

٤. غافر: ٧.

وجميع أقسام الشفاعة الأربعة الأخيرة ـ العمل، القيادة، التوبة، دعاء الأنبياء ـ تتحقّق في هذا العالم بعد انضمامها إلى الإنسان، وينتج عنها المغفرة والعفو في هذا العالم أحياناً، ثم يقطف الإنسان ثمارها في العالم الأُخروي.

٦ ـ شفاعة المغفرة

رغم أنّ ما ذكر من أقسام الشفاعة إلى الآن كان من المصاديق الحقيقية للشفاعة بمعناها اللغوي، وقد أُطلق علىٰ بعضها في الروايات كلمة «الشفيع» وما شاكلها، ورغم أنّ اطلاق لفظ «الشفيع» علىٰ هذه الموارد استعمال حقيقي له؛ لكن لا أحد منها يمثّل الشفاعة الاصطلاحية التي تقصدها الآيات القرآنية.

فالشفاعة اصطلاحاً هي حدوث وساطة من أجل المغفرة والعفو والصفح عن الذنوب يوم القيامة، وهذا القسم من الشفاعة هو الذي تعرّض للنقد والتجريح من قبل البعض، وأُشكل عليه بمختلف الإشكالات.

والآيات المتعلّقة بالشفاعة، سواء تلك النافية لها أم المثبتة جعلت ظرفها ومحلّها يوم القيامة، نشير هنا إلى بعضٍ منها:

أ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لَّاتَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[1].

---

١. البقرة: ٤٨.

ب ـ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّابَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[1].

ج ـ وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾[2].

د ـ وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَاتُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾[3].

ويتّضح من خلال التدبّر في هذه الآيات الكريمة أنّ الشفاعة الواردة في القرآن تقع في يوم القيامة، فهنالك يشفع البعض بإذنٍ منه تعالى لعددٍ من العصاة والمذنبين الذين يمتلكون مؤهّلات ذلك.

هذا ويجب توفّر شروط شمول الشفاعة في هذا العالم، وينبغي أيضاً تحصيل اللياقة والأهلية لذلك في دار الدنيا.

---

١. البقرة: ٢٥٤.

٢. طه: ١٠٩.

٣. النجم: ٢٦.

الفصل الثاني

شروط الشفاعة

شروط الشفاعة

تفيد الآيات والروايات المنقولة عن المعصومين عليهم السلام أنّ للشفاعة حدوداً وقيوداً وليست مطلقة؛ لكنّهم لم يخوضوا في تفاصيل شروطها، وربّما تعمّدوا في جعلها مجملةً من جهتين: فمن جهة لو علم من توفّرت فيه شروطها أنّ ذنوبه مغفورة ببركة شموله بالشفاعة لرأىٰ نفسه حرّاً أمام المعاصي ممّا يبعث على التجرّي، ومن جهة أخرىٰ لو علم البعض أنّ الشفاعة لاتشمله لقنط من رحمة الله، واليأس من رحمته تعالىٰ يترك أعظم الأثر على النفس الإنسانية.

إنّ هذا الإجمال والغموض يوجب أن يبقىٰ الإنسان بين الخوف والرجاء دائماً، ويراقب أعماله وتصرّفاته بصورة دائمة.

شروط الشفاعة من منظار العقل

بقطع النظر عن الآيات والروايات يقول العقل: بما أنّ صفات الباري تعالىٰ وذاته غير محدودة فإنّ رحمته ومغفرته واسعة وغير

محدودة أيضاً، والرحمة الواسعة التي لاتحدّ بحدود تشمل كافة المخلوقات كما هو واضح.

أضف إلىٰ ذلك أنّ العقل يدرك أيضاً ضرورة القابلية والأهلية للشخص، فلابدّ أن تكون للشخص أهلية الشمول بالرحمة الإلهية، وأمّا ماهية هذه القابلية والأهلية وكيف تتحقّق فلايدركها العقل.

وهذا ما يحصل أيضاً في الشفاعة البشرية أو الشفاعة بالباطل، فلايمكن أن يتشفّع شخص في تعيين رجل أُمّي لايحسن التوقيع في منصب حسّاس كالوزارة أو الإدارة العامة؛ ذلك أنّ مثل هذا الرجل لايمتلك مقوّمات التشفّع له بجعله في مثل هذا المنصب الخطير.

والأمر نفسه لو فرضنا أنّ شخصاً تمرّد على السلطان وحمل سلاحه لمحاربته، فيتعذّر أن يتشفّع شخص لهذا المتمرّد في العفو عنه وهو ما زال يحمل سلاحه ويحارب؛ لأنّه يفتقر إلىٰ أهلية الشفاعة.

إذن، أصل القابلية والأهلية لدى العقل أصل ضروري ومسلَّم حتّىٰ في أنواع الشفاعة البشرية.

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو: ما هي القابلية؟ وما المقدار اللازم منها للشفاعة؟

لقد أشارت بعض الآيات والروايات إلىٰ هذا الموضوع، وسلّطت عليه الضوء إجمالاً، حيث بيّنت ما هي الحالات والصفات الإنسانية الموجبة لفقدان القابلية والحرمان من الشفاعة والغفران الإلهي، وما هي العوامل اللازم توفّرها لشمول الشفاعة.

وفيما يلي نشير إلىٰ عددٍ من تلك العوامل والشروط اللازمة للشفاعة:

١ـ الإيمان

والإيمان أول شروط الشفاعة؛ لذا فإنّ الكفر ـ بجميع أقسامه ـ مانع عن الشفاعة.

وثمة ثلاثة أمور أساسية توجب الكفر وهي: إنكار ذات الباري والشرك به، وإنكار الرسالة، وإنكار المعاد ويوم الجزاء؛ وكلّ ما عاد إلى الكفر أوجب سلب قابلية المغفرة والشفاعة من الإنسان.

وعلىٰ هذا الأساس، يجب أن يكون هناك ارتباط بين الإنسان والله تعالىٰ لتفتح في قلب الإنسان نافذة إلىٰ عالم الغيب، وما تلك النافذة إلّا الإيمان.

ثم إنّ مراتب الإيمان مختلفة: فتارةً تفتح نافذة من قلب الإنسان إلىٰ عالم الغيب، وتارةً تكون هذه النافذة أوسع من سابقتها فيكون إيمان صاحبها أقوىٰ، ومرتبته الاعتقادية واليقينية أرفع بقليل، وتارةً يفتح قلب المرء بأكمله علىٰ عالم الغيب ويصل مرحلة اليقين، كأمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: ***«لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً»***[1].

ولاشكّ أنّ هذه المرحلة تقتصر علىٰ أولياء الله المعصومين كرسول الله صلى الله عليه وآله والإمام أمير المؤمنين وأولاده الطيبين الطاهرين عليهم السلام.

---

١. بحار الأنوار ٦٩: ٢٠٩.

وهناك أفراد يأتون في المراتب اللاحقة لهم، وهم في درجات متفاوتة أيضاً.

كما أنّ هناك مراتب مختلفة من جهة ضعف الإيمان حتّىٰ تصل إلى مرتبةٍ يقفل معه القلب، فلا وجود لنافذة مفتوحة علىٰ عالم الغيب، فيغدو القلب مظلماً.

وواضح أنّ شخصاً كهذا لايمتلك القابلية والأهلية اللازمة للمغفرة الإلهية، والشفاعة الحاصلة بواسطة الأنبياء وذوي النفوس الكاملة؛ فمثله في ذلك مثل الإناء المغلق بإحكام الذي وإن أُلقي في البحر وغاص إلىٰ أعماقه لاتدخل فيه قطرة من الماء.

وضروري أن نشير إلىٰ عدد من الآيات القرآنية الدالّة علىٰ ضرورة اعتبار الإيمان في الشفاعة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَيَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾[١].

طبقاً لهذه الآية الكريمة فإنّ المغفرة لاتشمل المشرك، وللشرك أقسام عدّة: الشرك في الذات، والشرك في الأفعال وغيره. فتارةً يعتقد الإنسان بوجود آلهة متعدّدة، إله للخير وآخر للشرّ، وتارةً ثانية يكون الشرك في الربوبية فيؤمن الانسان بأرباب متعدّدين ـ وحسبما عبّر القرآن: ﴿ءأرباب متفرّقون﴾ ـ قد أوكل إليهم أمر تدبير العالم؛ وتارة

١. النساء: ١١٦.

ثالثة يكون الشرك في العبادة ـ كما ذكرنا ذلك سابقاً ـ ومنشأه الشرك في الربوبية وتدبير الأمور.

وعلى العموم فجميع أقسام الشرك المحكوم بالكفر والملحق به موجبة لسلب القابلية من الإنسان.

وتارةً أخرىٰ يبدي الإنسان اهتمامه بالأسباب والوسائل المادية دون أخذ مسبّب الأسباب بنظر الاعتبار، ومثله يكون مبتلىً بالشرك في العمل فقط، فيظنّ أنّ مديره في الدائرة أو المصنع هو الرازق له! إنّ هذا النوع من البشر يعتبر رئيسه رازقاً له من ناحية عملية غفلةً؛ أمّا لو سُئل عن عقيدته ونوقش فيها لالتفت إلى الرازق الواقعي بلا عناء في التفكير وأدرك خطأه.

إذن، يبتلى الإنسان ـ أحياناً ـ بمرحلة من الشرك الخفي نتيجةً للغفلة، ولايؤدّي الشرك الخفيّ بصاحبه إلى الكفر والحرمان من الشفاعة والغفران الإلهي وإن أُطلق عليه لفظ الشرك.

٢ ـ وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً لَايَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً﴾[1].

هذه الآية الشريفة تؤكّد علىٰ حرمان المجرمين من الشفاعة، و«المجرم» أعمّ من المؤمن والكافر، فكما يذنب الكافر يصدر الذنب

---

١. مريم: ٨٥ ـ ٨٧.

من المؤمن أيضاً؛ إلّا أنّ الكافرين يؤاخذون ويعاقبون علىٰ أصول الدين وفروعه كذلك.

وعلىٰ كلّ حال فمعنى المجرم هنا عام، فكما ترون بدايةً يقول تعالىٰ: ﴿لَايَمْلِكُونَ [المجرمون] الشَّفَاعَةَ﴾ ثم يستثني قسماً منهم ويقول: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾؛ ما معنىٰ هذا العهد؟ إنّه الإيمان؛ لأنّه تعالىٰ بيّن هذا العهد في سورة يّس قائلاً: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّاتَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[1]

والمؤمن هو من اتّخذ مع الله عهداً، وكانت له معه علاقة وطيدة؛ وبعبارة أخرىٰ لديه طريق من قلبه إلى الحقّ، وأمّا غير المؤمن فلا عهد له مع الباري؛ وبعبارة أخرىٰ: قطع ارتباطه مع الله ونقض عهده، قال تعالىٰ: ﴿لَايَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ أي: لو آمنوا لاحتمل أن تشملهم الشفاعة، أمّا المجرمون فلا.

إنّ توفّر الإيمان شرط لازم لقابلية الشفاعة، لكن لايحرز أنّه كافٍ؛ لذا علىٰ فرض وجود الإيمان لدىٰ الشخص لايمكن الادّعاء يقيناً وجزماً أنّ الشفاعة تشمله؛ لاحتمال عدم توفّر باقي الشروط فيه، ولا أحد يجزم بنيله الشفاعة وإن احتمل أنّ الله تعالىٰ سيجعل الشفاعة من نصيبه إن شاء.

٣ ـ وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ

---

١. يس: ٦٠ – ٦١.

أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1].

وبعد هذه الآيات، قال تعالىٰ حول حرمان الكفّار من النعم الإلهية يوم القيامة: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾[2].

والمراد من الكتاب هنا هو إرسال الرسل والشرائع من قبل الله تعالىٰ، حيث أُنزلت كتب سماوية مختلفة في أزمنة متفاوتة؛ كالتوراة والإنجيل والقرآن، وعندما تتّضح حقيقة هذا الكتاب للذين نسوه في الدنيا يثوبون إلىٰ رشدهم ويندمون، ويقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؟ فيجيبهم الله تعالىٰ بالرفض قائلاً: ﴿قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ إذن لا وجود لشفيعٍ لمثل هؤلاء الأفراد.

٤ ـ وفي آية أخرىٰ، نفىٰ الكفّار والمشركون أن يكون لهم شفيع،

---

١. الأعراف: ٥٠ ـ ٥١.

٢. الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣.

قال تعالىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[١].

ترتبط هذه الآيات بمن كان يعبد غير الله أيضاً، فيخاصم ما كان يُعبَد في الدنيا بعد ورود جهنم، فهنالك يدرك الكفّار فداحة ما ذهبوا إليه من كفرٍ وشركٍ؛ لكنّهم يحاولون تحميل المسؤولية لغيرهم، لذا قالوا: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾، ثم يعترفوا بعدم وجود شفيعٍ أو صديقٍ يخلّصهم من عذاب يومئذ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

٥ ـ وقوله تعالىٰ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[٢].

وفي هذه الآيات يجيب الكفّار المؤمنين حول سؤالهم عن سبب دخولهم جهنّم، فيقولون: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ والمراد من اليقين هنا: إمّا الموت وإمّا عالم ما بعد الموت حيث يوجب اليقين، وربما أُريد به نفس اليقين الذي حصلوا عليه بعد ورودهم إلىٰ عالم الآخرة.

---

١. الشعراء: ٩١ ـ ١٠١.

٢. المدّثر: ٤٦ ـ ٤٨.

وعلىٰ أيّة حال، بعد بيان قول الكفّار، يقول سبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لأنّهم يفتقرون إلىٰ أهلية الشفاعة، ويفقدون القابلية عليها.

ومجمل الكلام: الشرط الأساسي للشفاعة وجود ارتباط معنوي مع الله سبحانه؛ فلا ينال الشفاعة ـ وهي عبارة عن نصرة ومعونة أولياء الله ـ إلّا من حافظ علىٰ ذلك الارتباط الايماني، ولم يقطعه بعد إذنٍ منه تعالىٰ، وإذا ما بلغ حدّاً فاضحاً من السقوط والتدنّي، وتعذّر عليه التحوّل إلىٰ إنسانٍ طاهرٍ، فلن يكون لتوسّله جدوىً وأثر ينتفع به.

نظرة إلى الروايات

ننقل فيما يلي عدداً من الروايات التي تصبّ في هذا الإطار:

١ ـ أخرج الشيخ الصدوق رحمه الله رواية عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام، قال:

«جاء نفر من اليهود إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله أعلمهم عن أشياء... فقال النبي صلى الله عليه وآله:... وأمّا شفاعتي ففي أصحاب الكبائر، ما خلا أهل الشرك والظلم»[1].

فالشفاعة إذن لمرتكب الكبائر، لكن النبي صلى الله عليه وآله لم يبيّن نوع هذه الكبائر، ولا الأشخاص المستحقّين للشفاعة، بل قال بشكلٍ مجملٍ:

---

١. الخصال ٢: ٣٥٥ ح٣٦.

«وأمّا شفاعتي ففي أصحاب الكبائر»، وإنّما ترك الأمر مبهماً ليظلّ الإنسان بين الخوف والرجاء.

واستثنت هذه الرواية طائفتين ممّن يحرمون الشفاعة حينئذٍ وهم أهل الشرك وأهل الظلم.

٢ ـ ونقلت رواية أخرىٰ عن رسول الله ﷺ في هذا المجال، قال: ***«فهي [شفاعتي] نائلة إن شاء الله من مات ولايُشرك بالله شيئاً»***[١].

٣ ـ وجاء في رواية أخرىٰ عنه ﷺ قال:

«شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلّا الله مخلصاً، يصدّق قلبه لسانه، ولسانه قلبه»[٢].

وعلىٰ هذا الأساس، فإنّ الشرك والكفر، وعدم الإيمان بالله وبرسوله ﷺ وبيوم الجزاء كلّ ذلك يمنع من شمول الشفاعة، ويسلب القابلية من الإنسان من أن ينالها.

من هم أصحاب اليمين وأصحاب الشمال؟

تناولت بعض الآيات القرآنية البحث عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، واعتبرت أصحاب الشمال محرومين من الشفاعة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾[٣].

---

١. مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٢٦.

٢. المصدر السابق: ٣٠٧ و٥١٨.

٣. الواقعة: ٤١ ـ ٤٣.

كما وذكر في سورة الواقعة: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ... وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾، والظاهر أنّ أصحاب الميمنة هم أنفسهم أصحاب اليمين؛ أي الميمونون والمباركون، في قبالة أصحاب المشئمة؛ أي المشؤمون.

وعلىٰ كلّ حال، فإنّ قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾[1] يثبت أنّ أصحاب اليمين يُعطون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم، في حين أنّ أصحاب الشمال يُعطون كتبهم آنذاك بشمالهم، ثم يؤكّد تعالىٰ أنّ الصنف الأول سوف يُحاسب حساباً يسيراً، ولا يرتهنون يوم يرتهن الآخرون بأعمالهم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2]؛ فهذه الآية عجيبة جداً، وتدعو إلى الحذر والتأمّل، فإن كنّا من أصحاب اليمين نجونا من عذاب يومئذٍ، وإلّا ابتلينا أيّما ابتلاء.

ثم يقول تعالىٰ: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[3].

في هذه الآيات الشريفة نقل تعالىٰ حوار أهل الجنّة مع أهل جهنّم، ويتّضح من ذلك أنّ أهل الجنّة مشرفون علىٰ أهل النار

---

١. الانشقاق: ٧.

٢. المدّثر: ٣٨.

٣. المدّثر: ٤٠ ـ ٤٨.

فيسألونهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ فأجابوا: كان السبب اتّصافنا بأربع صفاتٍ قبيحةٍ حتّىٰ تغلغلت إلىٰ أعماقنا:

١ ـ ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾.

٢ ـ ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾.

٣ ـ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ والخوض بمعنى الدخول في الشيء، وعادةً ما يستعمل في الأمور الباطلة، فيقال: يخوض في الباطل، فأولئك يعترفون بأنّهم كانوا يجارون من يهزأ بالجزاء والقيامة والجنّة والنار، أو كما يقولون: كنّا غارقين في الدنيا وزخارفها، كمن يغرق في البحر فلايخرج منه مهما حاول الخلاص منه.

٤ ـ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ وفسِّر «اليقين» في هذه الآيات بالموت؛ وذلك إمّا لأنّه أمر يقيني لا شبهة فيه، وإمّا لأنّ الإنسان يصل مرحلة اليقين بعد الممات، فإذا كان متردّداً في دنياه في وجود عالم البرزخ وعالم ما بعد الموت والمعاد والله والنبي ﷺ وسائر الحقائق الأخرىٰ، فما أن يرحل عن هذا العالم وتتحرّر روحه من قضبان البدن، ويفتح عينيه على الحقائق الأُخروية حتّىٰ يحصل لديه يقين بكلّ ما كذّبه سابقاً.

وعلىٰ أيّة حال فأولئك يعترفون بهيمنة تلك الصفات الأربع عليهم إلىٰ ما قبل الموت، فحينئذٍ قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

تفسير العلّامة الطباطبائي للآية

لمّا أراد المرحوم العلّامة الطباطبائي رحمه الله تفسير بعض آيات الشفاعة، شرع ببحث الشفاعة تحت عنوان «في من تجري الشفاعة؟»[١] وتعرّض إلى الآيات المذكورة آنفاً فقال: «إنّ الآيات واقعة في سورة المدّثر، وهي من السور النازلة بمكّة في بدء البعثة كما ترشد إليه مضامين الآيات الواقعة فيها، ولم تشرّع يومئذٍ الصلاة والزكاة بالكيفية الموجودة اليوم، فالمراد إذن بالصلاة في قوله: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾: التوجّه إلى الله تعالىٰ بالخضوع العبودي، وبإطعام المسكين: مطلق الإنفاق على المحتاج في سبيل الله، دون الصلاة والزكاة المعهودتين في الشريعة الإسلامية. والخوض: هو الغور في ملاهي الحياة وزخارف الدنيا الصارفة للإنسان عن الإقبال على الآخرة وذكر الحساب يوم الدين، أو التعمّق في الطعن في آيات الله المذكِّرة ليوم الحساب، المبشّرة المنذرة».

ثم أضاف: «وبالتلبس بهذه الصفات الأربعة، وهي ترك الصلاة لله وترك الإنفاق في سبيل الله والخوض وتكذيب يوم الدين، ينهدم أركان الدين، وبالتلبّس بها تقوم قاعدته علىٰ ساق، فإنّ الدين هو الاقتداء بالهداة الطاهرين وبالإعراض عن الإخلاد إلى الأرض والإقبال إلىٰ يوم لقاء الله، وهذان هما ترك الخوض وتصديق يوم الدين، ولازم هذين عملاً التوجّه إلى الله بالعبودية، والسعي في رفع

---

١. تفسير الميزان ١: ١٦٩.

حوائج جامعة الحياة، وهذان هما الصلاة والإنفاق في سبيل الله، فالدين يتقوّم بحسب جهتي العلم والعمل بهذه الخصال الأربع، وتستلزم بقية الأركان كالتوحيد والنبوة استلزاماً».

ثم قال العلّامة: «فأصحاب اليمين هم الفائزون بالشفاعة، وهم المرضيّون ديناً واعتقاداً، سواء كانت أعمالهم مرضية غير محتاجة إلىٰ شفاعة يوم القيامة أو لم تكن، وهم المعنيّون بالشفاعة، فالشفاعة للمذنبين من أصحاب اليمين، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[١]، فمن كان له ذنب باقٍ إلىٰ يوم القيامة فهو لا محالة من أهل الكبائر، إذ لو كان الذنب من الصغائر فقط لكان مكفَّراً عنه، فقد بان أنّ الشفاعة لأهل الكبائر من أصحاب اليمين.

ومن جهة أخرىٰ إنّما سمِّي هؤلاء بأصحاب اليمين في مقابل أصحاب الشمال، وربّما سمُّوا أصحاب الميمنة في مقابل أصحاب المشئمة، وهو من الألفاظ التي اصطلح عليه القرآن مأخوذ من إيتاء الإنسان يوم القيامة كتابه بيمينه أو بشماله».

ثم إنّه في موضع آخر من البحث استنتج من الآيات أنّ المراد من إيتاء الكتاب باليمين: اتّباع الإمام الحقّ، ومن إيتائه بالشمال: اتّباع إمام الضلال.

---

١. النساء: ٣١.

سؤال وجواب

عرفنا أنّ هذه الآيات قد انطوت علىٰ أربع صفات للمحرومين من الشفاعة، فلو حمل شخص بعض هذه الصفات فكان فقط مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾، لكنّه كان يؤمن بيوم الجزاء؛ أو كان فقط مصداقاً لقوله: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ فيما التزم بالأمور الأخرىٰ، فما هو مصيره حينئذٍ؟ هل يحرم من الشفاعة في حالة اتّصافه بتلك الصفات الأربع جميعاً، أم يحرم منها حتّىٰ مع اتّصافه ببعضها فقط؟

قال العلّامة الطباطبائي في هذا المجال: إنّ سؤاله تعالىٰ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ موجّه إلىٰ كافّة المجرمين، كما لو دخلت سجناً وأردت معرفة أسباب القبض علىٰ نزلائه، فبوسعك أن تسأل كلّ واحدٍ منهم عن ذلك علىٰ حدة، فيجيب حينئذٍ كلٌّ عن جرمه فقط. أمّا لو سألتهم جميعاً: ما الذي أتىٰ بكم إلى السجن؟ وأراد أحدهم التحدّث باسم الجميع، فربّما يقول: لشربنا الخمر وارتكابنا السرقة والزنا والقتل... وما إلىٰ ذلك من جرائم. وهذا لايعني أنّ كلّ واحد منهم ارتكب جميع تلك الجرائم، بل يعني أنّ بعضهم قام بالقتل، وبعضهم ارتكب الزنا، وبعضهم شرب الخمر... وهكذا.

وفي هذه الآية الشريفة السؤال كلّي أيضاً، وموجّه إلىٰ جميع أهل جهنّم، فأجابوا بأنّ سبب دخولهم جهنّم هو تلك الصفات الأربع، وهو يعني أنّ بعضنا تارك للصلاة، وبعضنا كان يخوض مع الخائضين...

وهكذا. وإذا كان الأمر كذلك، فيجب القول: كلّ واحدٍ من هذه الجرائم والذنوب لوحده يؤدّي إلىٰ حرمان الإنسان من الشفاعة.

وثمة مؤيّد لهذا المعنىٰ؛ إذ إنّ هذه الآية الشريفة تقول: من ترك الصلاة في الدنيا حرم الشفاعة في الآخرة، وقد جاء في روايةٍ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه لمّا دنت شهادته جمع أهله وأقاربه وقال لهم: *«إنّ شفاعتنا لاتنال مستخفاً بالصلاة»*[١].

وهذه الرواية تؤيّد أنّ الاستخفاف بالصلاة لوحده يجرّ إلى الحرمان من الشفاعة.

وهناك رواية أخرىٰ تقول: *«تارك الصلاة كافر»*[٢].

فبناءً علىٰ هذا، الشفاعة تختصّ بأصحاب اليمين، بقرينة المقابلة بين أصحاب اليمين والشمال في الآية الشريفة؛ لأنّ المجرمين محرومون من الشفاعة، وهم أصحاب الشمال، وأصحاب اليمين في النقطة المقابلة لهم، فتشملهم الشفاعة.

٢ ـ العدالة

والشرط الثاني من شروط الشفاعة: ألّا يكون المذنب أو المجرم ظالماً وجائراً، قال تعالىٰ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٣].

هذه الآية المباركة مطلقة، وظاهرها: أنّ كلّ ظالمٍ محروم من

---

١. بحار الأنوار ٤٧: ٢.

٢. جامع أحاديث الشيعة ٤: ٧٤.

٣. غافر: ١٨.

الشفاعة؛ لأنّ الموضوع فيها ليس ظلماً خاصاً أو ظالماً معيّناً، بل نُفيت الشفاعة عن مطلق الظالم، وكذلك الرواية المشار إليها في البحث السابق مطلقة أيضاً، ونقلنا سابقاً عن النبي ﷺ قال:

«وأمّا شفاعتي ففي أصحاب الكبائر، ما خلا أهل الشرك والظلم» [١].

أعداء أهل البيت عليهم السلام غير مشمولين بالشفاعة

صرّحت بعض الروايات أنّ أعداء أهل بيت النبي ﷺ محرومون من الشفاعة، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«ولو أنّ الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين شفعوا في ناصبٍ ما شُفِّعوا» [٢].

كما روي عن النبي الكريم ﷺ أنّه قال:

«إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمتي فيُشفّعني الله فيهم، والله لاتشفّعت في من آذىٰ ذرّيتي» [٣].

والمقام المحمود غاية في العظمة، ومعناه واضح من اسمه، وقد أعطاه الله لنبيّه جزاءً لتهجّده وأدائه صلاة الليل، وما هو إلّا المقام العظيم للشفاعة.

---

١. الخصال ٢: ٣٥٥ ح٣٦.

٢. المحاسن: ١٨٤.

٣. تفسير نور الثقلين ٣: ٢٠٧ ح٣٩٨.

وروي أيضاً أنّه لمّا خرج الإمام الحسين عليه السلام من المدينة قاصداً مكّة، رأى النبي صلى الله عليه وآله في المنام يقول له:

«حبيبي ياحسين، كأنّي أراك عن قريب مرمّلاً بدمائك، مذبوحاً بأرض كربٍ وبلاءٍ من عصابةٍ من أمتي، وأنت مع ذلك عطشان لاتُسقى، وظمآن لاتُروى، وهم مع ذلك يرجون شفاعتي، لا أنالهم الله شفاعتي يوم القيامة...» [1].

٣ ـ رضا الله

والشرط الآخر من شروط الشفاعة هو لزوم أن يكون المشفوع له ممّن يرتضيه الله تعالىٰ، حيث قال في كتابه الكريم: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [2].

ففي هذه الآية لم يقيّد رضا الله بالرضا عن فعلٍ أو قولٍ أو عملٍ، وقال أيضاً: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [3].

وقال في آية أخرىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾ [4].

وبناءً علىٰ هذا، فالمراد من الاستثناء هو استبعاد الشخص

---

١. بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٨ ح٢.

٢. الأنبياء: ٢٨.

٣. طه: ١٠٩.

٤. النجم: ٢٦.

المذنب، فهاتان الآيتان جعلتا رضا الله عن الإنسان جزءاً من شروط الشفاعة.

ولمزيدٍ من الإيضاح نقول: هناك اتجاهان في تفسير هاتين الآيتين: أحدهما: أنّ الاستثناء متعلّق بالشفيع، فيصبح معنى الآية: لاتنفع شفاعة أحد يوم القيامة ولاتغني إلّا من بعد أن يأذن الله للشفيع ويرضىٰ عنه ويرضىٰ له قولاً، فيؤكّد هذا الاتجاه علىٰ أنّ ما ذكر في هذه الآيات هو شروط الشفيع لا شروط المشفوع له.

وأمّا الاتجاه الآخر فيؤكّد أنّ المراد من الاستثناء هو شخص المذنب، فيصبح مفاد الآيات المتقدّمة قريباً من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، وتغدو في عداد الآيات المبيّنة لشروط المشفوع له وليس للشفيع.

لكن تلك الآيات لم تحدّد بشكل دقيق معالم من يستحقّ الشفاعة ويحظىٰ بالرضا الإلهي، ولم تبيّن شروط وتفاصيل الرضا، لكنّ المسلّم به أنّ رضاه تعالىٰ ليس اعتباطياً أو عشوائياً أو بعيداً عن المصلحة، فهو لايرضىٰ عن أحدٍ أو يسخط عليه دونما سبب، بل رضاه تعالىٰ مبتنٍ علىٰ أساس العقائد والأعمال والسلوك التي يبديها الإنسان الحرّ.

إذن يجب أن تكون عقائد الإنسان صحيحة بالدرجة الأساس، فالعقائد المرضية تدفع إلىٰ رضا الله تعالىٰ عن الإنسان، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي

الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾[١].

فتفيد هذه الآية أنّ الله تعالىٰ لا يرتضي بعض الاعتقادات، لذا يتحتّم على الإنسان الذي يطمح إلىٰ نيل الرضا الإلهي عن عقيدته ودينه أن يؤمن بالله وبصفاته كما ينبغي، ويؤمن بيوم الجزاء إيماناً صحيحاً؛ ويجب أن يتمسّك بالعقائد التي يرضاها الله ليحظىٰ برضاه تعالىٰ.

لذا جاء في روايةٍ حول تفسير هذه الآية: قال: فقلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فما معنىٰ قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾؟ قال: *«لا يشفعون إلّا لمن ارتضى الله دينه»*[٢].

وعلىٰ ضوء هذا، فالشفاعة بالدرجة الأساس تشمل من آمن بالعقائد الدينية الصحيحة، وبحسب الآيات القرآنية اتّبع أصحاب اليمين في هذا العالم قادة الحقّ، ويستفاد من الآيات التي أوضحت خصوصيات أصحاب اليمين وأصحاب الشمال: أنّ الكافر بالله ويوم الجزاء ومنكر العقائد الحقّة محروم من الشفاعة، وعليه فإنّ التوحيد والإيمان والانقياد لحكام الحقّ والائمة يوجب رضا الله تعالىٰ عن عقائد الإنسان المذنب ويؤدّي إلى الشفاعة له.

وثمة رواية أُخرىٰ عن الإمام الصادق عليه السلام صدرت علىٰ شكل

---

١. النور: ٥٥.

٢. بحار الأنوار ٨: ٣٤.

رسالة، وهي في الحقيقة عبارة عن منهج عام للأصحاب، قال عليه السلام فيها:

«واعلموا أنّه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً، لا مَلَك ولا نبي مرسل ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن ينفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب الى الله أن يرضىٰ عنه»[1].

وبهذا أعلن الإمام الصادق عليه السلام إلىٰ كافة أصحابه، وأكمل الحجّة عليهم، لئلّا يتصوّر أحد أنّ لديه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو الإمام الحسين عليه السلام فلا خوف ـ إذن ـ عليه يوم القيامة؛ كلّا! حتّىٰ لو كان لديه مَلَك مقرَّب فلا ينفعه ما لم يرضَ الله عنه، إذ لا يغني عن الله مَلَك مقرَّب ولا نبيّ مرسل، فإن أراد الإنسان نيل الشفاعة في الآخرة لابدّ له من إحراز رضا الله، ولا يحرز رضا الله إلّا باعتناق العقائد الصحيحة والسليمة.

سؤال وجواب

لو ترك الإنسان الصلاة وأهمل الصوم، وجعل الحجّ الواجب وراء ظهره، ولم يدفع الزكاة، بل ترك جميع الأعمال العبادية، لكن لسانه كان يردّد ويقول: أنا أؤمن بالله تعالىٰ، من دون أن يحرّك ساكناً من ناحية عملية أو يقوم بالواجبات الملقاة علىٰ عاتقه، فمع ذلك هل يمكن القول: إنّ الله تعالىٰ راضٍ عن هذا الشخص؟ هناك كثير من

---

١. بحار الأنوار ٥٣: ٧.

الأفراد من هذا القبيل، هل يمكن أن يقال: إنّ قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ يشمل هذا؟

كلّا قطعاً، إذ كيف يرضى الله جلّ وعلا عمّن ليس بينه وبين الله ارتباط؟ فإنّه لايقتصر رضا الله تعالىٰ عن دين الإنسان علىٰ امتلاكه عقائد صحيحة وسليمة، بل يجب أن يكون مرضياً له من ناحية العمل أيضاً ليقال حينئذٍ: دين هذا الفرد مرضيّ، أو أنّه تعالىٰ راضٍ عنه.

المداومة على الذنب

المعصية وترك العبادة وعبودية الله وعصيان أوامره تعالىٰ قد تؤدّي إلىٰ فقدان الإيمان، فقطع الصلة بالله وأوليائه، وارتكاب المعصية، تجعل الإنسان يضيّع إيمانه الأولي أيضاً، قال تعالىٰ في هذا المجال وبشكلٍ صريح: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾[1].

وهذه نفس الملاحظة التي قالتها السيدة زينب بنت علي عليها السلام بوجه يزيد، واستدلّت بهذه الآية.

وعلىٰ أيّة حال، فتارةً يرتكب الإنسان معصية ثم يندم ويتوب عن ذلك، وإن أخذته الغفلة ثانيةً وأذنب مرةً أخرىٰ فإنّه يتوب أيضاً، إنّه علىٰ صلة وثيقة بالله، إذ يصلّي ويصوم ويقوم بالأعمال الأخرىٰ، فحتّىٰ مع ارتكابه المعصية لايقطع علاقته بالله تعالىٰ، وتارةً يكون الإنسان غارقاً في الدنيا وملذّاتها، ومصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿نَخُوضُ

---

١. الروم: ١٠.

مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[1] فرغم أنّه لاينكر الله والقيامة، ولايعبد الأصنام، ولايشرك مع الله أحداً؛ إلّا أنّه لايأتي بعملٍ من الواجبات الملقاة علىٰ عاتقه، لا الصلاة ولا الصوم ولا الحجّ ولا الدعاء ولا غير ذلك، ونتيجة ذلك أنّه يفقد حتّىٰ تلك الاعتقادات الأولية.

لاشكّ أنّ هذا خطر كبير، فلاينبغي لأحدٍ أن يقع في الغرور ويقول: أنا مؤمن، أنا أعبد الله وأوحّده، أنا أؤمن بيوم القيامة... ثم لايأتي بشيءٍ في مقام العمل، ويترك واجباته، ممّا يؤدّي إلىٰ ضعف عقيدته شيئاً فشيئاً إلىٰ أن يفقد إيمانه كلّياً.

نعم، إذا استطاع الإنسان المحافظة علىٰ هذه العقائد حتّىٰ موته فهذا مفيد له، أمّا لو تلاشت هذه العقائد من قلبه ونفسه قبل الموت أو في غضونه فسيموت ميتة الكافرين.

إنّ التأثير السلبي للمعصية، وترك طاعة الله سبحانه يعملان علىٰ إضعاف العقائد دائماً، فنحن لانعلم هل سترافقنا عقائدنا غداة الموت أم لا.

وقد جاء في بعض الروايات: أنّ الشيطان يصوّر للمحتضر وعاءً من الماء، ويقول له: إذا أردت أن أسقيك من هذا الماء العذب فعليك أن تتخلّىٰ عن عقائدك وتكفر بالله! إنّه لايقطع أمله من إغواء الإنسان حتّىٰ آخر لحظات حياته، إنّه أقسم أن يغوي جميع الناس، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

---

١. المدّثر: ٤٥.

٢. صٓ: ٨٢.

فإذا استمرّ الإنسان على المعصية، فربّما غلبه الشيطان ـ والعياذ بالله ـ حال الاحتضار، فهو يسعىٰ طيلة حياة الإنسان إلىٰ إلقاء الشبهات وتجريده عن عقيدته، ربّما يستطيع أن يوصل الإنسان إلىٰ مرحلة قول: أيّ ربٍّ! وأيّ نبيٍّ! وأيّ معادٍ؟! وهذه هي اللحظة التي يتربّصها الشيطان ليوقع بالإنسان في شباك الشرك، فإن كان إيمان ذلك الإنسان ضعيفاً فمن المحتمل جداً أن يفقده تماماً لحظة الاحتضار والموت.

وبناءً علىٰ هذا، فعلىٰ الإنسان أن يكون دائماً خائفاً من الوقوع في المعصية، ولا ينبغي أن يقول: أنا أرتكب المعصية الآن، لكنّني أموت معتقداً ومؤمناً، ثم أنال الشفاعة فيغفر الله لي؛ لأنّ المعصية قد تبعث علىٰ مثل هذا المصير الأسود للإنسان.

فمن كانت عقائده صحيحة وسليمة لكنّها بلا عمل، هل يكون مرضياً لله تعالىٰ؟

إنّ تصوّر مثل هذا الفرض في غاية الإشكال، بل يستحيل أن يؤمن الإنسان بعقائد صحيحة، فيعتقد بالله والقيامة والجزاء والعذاب والعقاب، ثم لايقوم بالطاعة له تعالىٰ، وعلىٰ فرض وجود مثل هذا الإنسان فهو لايستطيع أن يكون مرضياً له تعالىٰ؛ لأنّ الله سبحانه لايعجبه أمثاله ولايروق له.

إذن، يجب أن تكون عقائدنا صحيحة من جهة، ويكون لدينا عمل يؤهّلنا لمرضاة الله تعالىٰ من جهة أخرىٰ وإن صدرت منّا معصية

أحياناً نتيجة للسهو والغفلة.

والسؤال المطروح هنا: من تصدر منه المعصية ويرتكب الكبائر أحياناً، هل بوسعه نيل الرضا الإلهي؟

والجواب: هذا السؤال هو نفس ما سأله محمد بن أبي عمير من الإمام موسىٰ بن جعفر الكاظم عليه السلام كما جاء في صحيحته: قال: سمعت موسىٰ بن جعفر عليه السلام يقول:

«لا يخلّد الله في النار إلّا أهل الكفر والجحود، وأهل الضلال والشرك. ومن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يُسأل عن الصغائر، قال الله تبارك وتعالىٰ ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾[1]»[2].

ففي هذا المقطع من الرواية يؤكّد الإمام عليه السلام علىٰ أنّ أهل الكفر والشرك مخلّدون في النار، أمّا المؤمنون فلو اجتنبوا الكبائر لما سُئِلوا عن الصغائر آنذاك. فتبادر حينئذٍ سؤال في ذهن ابن أبي عمير، فطرحه على الإمام عليه السلام: قال: فقلت له: يابن رسول الله، فالشفاعة لمن تجب من المذنبين؟ فقال:

«حدّثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأمّا

---

١. النساء: ٣١.

٢. التوحيد للصدوق: ٤٠٧ ح٦.

المحسنون منهم فما عليهم من سبيل»[1].

ففي هذا المقطع عيّن الرسول الأكرم ﷺ مورد الشفاعة ومستحقّيها، وهم أهل الكبائر من أُمته، وحينئذٍ بادر ابن أبي عمير إلىٰ إلقاء سؤال آخر فقال: يابن رسول الله، فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ومن يرتكب الكبائر لايكون مرتضىً؟ فقال:

«ياأبا أحمد، ما من مؤمنٍ يرتكب ذنباً إلّا ساءه ذلك وندم عليه، وقد قال النبي ﷺ: كفىٰ بالندم توبةً، وقال: من سرّته حسنته وساءته سيّئته[2] *فهو مؤمن، فمن لم يندم علىٰ ذنبٍ يرتكبه فليس بمؤمنٍ، ولم تجب له الشفاعة، وكان ظالماً، والله تعالىٰ يقول:* ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾»[3].

وفي هذا المقطع من الرواية جرىٰ الكلام عن صنفين من البشر: أحدهما: الحسّاس الذي يتأثّر بالمعصية ويستاء من فعلها ويسترّ بفعل الحسنة، والآخر: لايرتكب المعصية فحسب، بل يسرّ بها أحياناً. فالصنف الأول من البشر مؤمنون، أمّا الصنف الثاني فليسوا بمؤمنين، بل هم ظالمون ومحرومون من الشفاعة.

---

١. التوحيد للصدوق: ٤٠٧ ح٦، وقد ورد في بحار الأنوار لفظ «المؤمنين» بدل كلمة «المذنبين».

٢. وجاء في بعض النسخ بلفظ: «من سرّته حسنةٌ وساءته سيّئةٌ فهو مؤمن».

٣. بحار الأنوار ٨: ٣٥١.

والمؤمنون حتّىٰ لو صدرت منهم المعصية فهم يندمون عليها، ممّا يدلّل علىٰ أنّ الايمان عامر في قلوبهم، لذا فهم ممّن يرضى الله عنهم، وممّن تشملهم الشفاعة.

إلّا أنّ الندم بمفرده لايعدّ توبةً كاملةً، فالتوبة ـفضلاً عن النـدمـ تتطلّب العـزم عـلىٰ عـدم العـود والاسـتغفار، وقـد ورد عـن أمـير المؤمنين عليه السلام في إحدىٰ خطبه[1] أنّه ذكر ستة شروط للتوبة، فلابدّ لهذا الشخص أن يقوم بأحد أركان التوبة وهو الندم على الأقلّ.

وعلىٰ أثر كلام الإمام عليه السلام تـبادر سـؤال آخـر إلى الراوي فسأل مندهشاً: فقلت له: يابن رسول الله، كيف لايكون مؤمناً من لم يـندم علىٰ ذنبٍ يرتكبه؟ فقال:

«ياأبا أحمد، ما من أحدٍ يرتكب كبيرةً من المعاصي، وهـو يعلم أنّه سيعاقب عليها، إلّا ندم علىٰ ما ارتكب، ومتىٰ ندم كان تائباً مستحقّاً للشفاعة، ومتىٰ لم يندم عـليها كـان مصرّاً، والمصرّ لايغفر له؛ لأنّه غير مـؤمنٍ بـعقوبة مـا ارتكب، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[2].

فإن تأمّلتم لرأيتم أنّ عواقب الأعمال الدنيوية هكذا: فإذا ما قام الإنسان بعملٍ وهو يعلم أنّه سيؤدّي به إلىٰ مشاكل عويصة، سـيندم

---

١. نهج البلاغة: ح٤١٧ ضبط صبحي الصالح.

٢. بحار الأنوار ٨: ٣٥٢.

علىٰ ذلك ويؤنّب نفسه لا محالة، كمن أكل طعاماً مثلاً وهو علىٰ علمٍ بأنّ عاقبته الذهاب إلى المستشفىٰ، فممّا لاشكّ أنّه سيلوم نفسه قائلاً: لِمَ فعلت كذا؟ لِمَ أكلت هذا الطعام؟

وعلىٰ كلّ حال، إن أيقن هذا الإنسان بوجود حسابٍ وعقابٍ يندم علىٰ فعله قطعاً، فإن لم يندم يتّضح أنّه لايؤمن بالعقاب.

وقد أوضح الإمام عليه السلام هذا الأمر قائلاً:

«وأمّا قول الله: ﴿وَلَايَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ فإنّهم لايشفعون إلّا لمن ارتضىٰ الله دينه، والدين: الإقرار بالجزاء علىٰ الحسنات والسيئات، ومن ارتضىٰ الله دينه ندم علىٰ ما يرتكبه من الذنوب؛ لمعرفته بعاقبته في القيامة»[1].

وعليه فإذا ارتكب الإنسان المعصية، ثم لم يحرّك ساكناً ولم تبدُ عليه آثار الندم، فلن يشمله قوله تعالى: ﴿وَلَايَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾، فلا يرضى الباري تعالىٰ إلّا عمّن ندم علىٰ ذنبه ومعصيته، ويكون حينئذٍ مستحقّاً للشمول بالشفاعة.

إنّ ما ذكرنا عن الندم شرط لازم لتحقّق التوبة، أمّا التحقّق الكامل للتوبة فلا يحصل إلّا بالعزم علىٰ عدم العود إلىٰ تلك المعصية، وإصلاح ما فسد من جرّائها، فضلاً عن الندم المذكور.

وواضح للباحث أنّ الآيات القرآنية الواردة في التوبة تذكر العمل

---

١. بحار الأنوار ٨: ٣٥٢.

الصالح كلّما ذكرت التوبة، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[١].

وجاء في الحديث المأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«... ***أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّىٰ تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد***»[٢].

فعلىٰ أيّة حال، الندم لوحده غير كافٍ في تحقّق توبةٍ كاملةٍ؛ لكن من ناحية قابلية الشفاعة، فمن دفعته المعصية إلى الاستياء والندم فقد دخل في عنوان ﴿من ارتضىٰ﴾، وصار مؤهّلاً لشمول الشفاعة له؛ وأمّا إن لم تسؤه السيّئة، ولم تحدث ثورةً في كيانه فهو غير مؤمنٍ بيوم الجزاء.

* * *

وهناك مطالب أخرىٰ في بحث الشفاعة لكنّنا نطوي عنها صفحاً وننهي البحث فيها، علىٰ أمل أن يعيننا الله تبارك وتعالىٰ يوم القيامة ويؤهّلنا للشمول بشفاعة الأئمة المعصومين والأنبياء والمرسلين سيّما خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله، وهذا الأمل وطلب الشفاعة ما هو إلّا نوع من إيجاد القابلية لتعزيز الارتباط بأولياء الله والأئمة المعصومين عليهم السلام.

---

١. الفرقان: ٧١.

٢. نهج البلاغة: ح٤١٧ ضبط صبحي الصالح.



الفصل الثالث

الشفاعة ودورها في تطهير الروح والنفس

الشفاعة ودورها في تطهير الروح والنفس

ولأجل تسليط الأضواء على حقيقة الشفاعة الإلهية، وبيان كيفيتها، والفارق بينها وبين الشفاعة البشرية، يجب تقديم مقدّمتين وذكر نقطة في غاية الأهمية:

المقدّمة الأولىٰ: الرحمة الإلهية الواسعة

إنّ الأصل العام والشامل لكلّ أجزاء عالم الخلقة كافّة، والذي هو من الأصول المسلَّمة للخلقة، ويجري في عالم الطبيعة والمادة، وأيضاً في عالم ما وراء المادة وعالم ما بعد الموت، هو الرحمة الإلهية التي هي شاملة لكلّ شيء وغالبة علىٰ كل شيء.

ونقرأ في أول دعاء كُميل: ***«اللّهم إنّي أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء»***.

وفي القرآن الكريم ثمة تأكيد علىٰ سعة الرحمة الإلهية في عددٍ من الآيات، منها: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾[1].

---

١. الأنعام: ١٤٧.

والسؤال الآن: ما هي الرحمة الإلهية؟ وما هي مظاهرها؟

فعندما نسمع كلمة «الرحمة» يتبادر إلىٰ أذهاننا عادةً الإنسان الحنون والعطوف وذو العواطف الجيّاشة، بينما لمّا نقول: «رحمة الله واسعة وقد وسعت كلّ شيء»، أو «تجري رحمته وعلمه في كلّ مكانٍ وفي كلّ شيءٍ»، فذلك لايعني الرحمة التي عندي وعندك وعند الناس، بل المراد من سعة الرحمة الإلهية أنّ العالم بأسره مظهر لرحمة الله تعالىٰ، فنظام الكون في عالم المادة وغير المادة من مظاهر رحمته، وجميع عالم الوجود وكلّ ما فيه من رحمته تعالىٰ، قال عزّ من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[1] فعلىٰ أثر الغيث (المطر) تخضرّ الأرض وتزهو بالحياة.

وبناءً علىٰ هذا، فالحياة التي تمثّل أثراً تكوينياً وطبيعياً علىٰ سطح الأرض أطلق عليها القرآن «رحمة»، سواء كان مراده من الغيث نفس المطر الذي يمثّل الرحمة المنتشرة في كلّ مكان، أم كان مراده الأثر المتحصّل من الغيث وهو عبارة عن تدفّق الحياة ونموّ النباتات؛ لا فرق بين الاثنين، ففي كليهما أطلق القرآن كلمة «الرحمة» علىٰ شيء موجود طبيعي.

إذن، فإنّ كلّ عالم الوجود ونظام الكون، وكلّ موجود من إنسانٍ وغيره، هو رحمة من رحماته تعالىٰ، وكذلك أنّ جميع النِعَم الإلهية: الماء والهواء، والنور والظلمة، والنهار والليل، والشمس والقمر

---

١. الشورىٰ: ٢٨.

والنجوم، والأرض والسماء، والأزهار والنباتات... وغيرها جميعاً هي من مظاهر الرحمة الإلهية.

من مظاهر هذه الرحمة

إذا ما أمعنّا النظر في مكونات هذا العالم، وتأمّلنا ما يحيط بنا، نجد أنّ الأشياء والموجودات المفيدة والسليمة غالبة على الأشياء غير المفيدة، فالصلحاء من البشر أكثر بآلاف المرات من الذين في قلوبهم مرض، وكذا فإنّ البلاء والمرض والآفات أشياء استثنائية.

فالأصل الأولي في عالم الخلقة والكون هو غَلَبة الموجودات والنِعَم الالهية الصحيحة والسليمة علىٰ غيرها، وهي جميعاً من مظاهر انتشار وغلبة الرحمة الإلهية.

لقد خلق الله تعالىٰ قوىً في بدن الإنسان والحيوان تطرد عنه الأمراض ما استطاعت، والدواء في الحقيقة يعمل علىٰ تقوية تلك القوىٰ لتتمكّن من مقارعة المرض بصورة أفضل، وإذا ما انكسر عظم في بدن الانسان أو الحيوان يعاد إلىٰ وضعه الطبيعي، أي يقوم البدن نفسه بجبر هذا العظم وترميمه بعد مدّة قصيرة من الزمن... إذن، الدواء يضاعف من قوىٰ البدن لتقوم بنفسها بإصلاح الجزء العاطل، لا أنّه يقوم بنفسه بجبر العظم الكسير.

كما وخلق الله موجوداتٍ تطرد التلوّث والأقذار والأرجاس عن هذا العالم، فمياه البحار والأشجار والنباتات تنقي الجوّ، ولولا هذه

التنقية لما استطاع الإنسان البقاء علىٰ قيد الحياة؛ إذ يمتلئ الجوّ بغاز ثاني أوكسيد الكاربون تدريجياً فيختنق الإنسان وجميع المخلوقات التي تشاطره الحياة علىٰ سطح هذا الكوكب، والله تعالىٰ هو الذي خلق الأشجار والنباتات والمياه لتنقية الهواء وجعله قابلاً للاستنشاق، فنحن في غفلةٍ عن كلّ هذه النِعَم، فهي تحيط بنا من كلّ جانب وتفعل ما تفعله خدمةً لنا، ونحن عنها ساهون.

والانسان نفسه يفرز كميات كبيرة من الفضلات والقمامة، والحيوانات كذلك، إضافةً إلىٰ تفسّخ أبدانها بعد الموت، ولو بقيت تلك القاذورات علىٰ حالها لاستحال السكن علىٰ وجه الأرض؛ لكنّ الله خلق أحياءً مجهريةً؛ كالميكروبات والبكتريا تقوم بتحليل تلك الفضلات وإعدامها، ولولا هذه الموجودات لامتلأ هذا العالم بالنفايات، ولتعذّر على الموجودات الحية مواصلة حياتها فيه.

لذا فأينما أدار الإنسان بصره في عالم المادة والطبيعة، سواء في بدنه أم في خارجه، في عالم النباتات أم في عالم الحيوانات، في البحار أم في الأنهار أو في غيرها، يرىٰ مظاهر الرحمة والنِعَم الإلهية السابغة، ويحسّ باتّساع نطاقها وغَلَبتها.

وأمّا ما يحدث من موارد سيئة، من قبيل البلاء والمصائب والآفات، والفيضانات والزلازل، وبغضّ النظر عن المصالح الكامنة فيها، فإنّها قياساً إلى النِعَم اللامتناهية لاتعدو شيئاً جديراً بالمقارنة.

كما وأنّ أحد المظاهر الأخرى للرحمة الإلهية هي نفس وروح

الإنسان، إذ إنّ فطرة الإنسان قائمة على الطهارة والفضائل السامية، من عبادة الله والإذعان له، والبحث عن صفاته وأسمائه الحسنىٰ، وطلب الحقّ والعدل وجميع الشمائل والمحاسن، وهذه من مظاهر رحمة الله تعالىٰ، ورغم أنّ البيئة المحيطة والأسرة والوالدين وغيرها من العوامل تؤثّر على الإنسان وتغيّره، غير أنّ فطرته وذاته تظلّ طاهرة وسليمة وبعيدة عن المؤثّرات، قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1]. فالإنسان وفقاً لهذه الآية مفطور على التديّن وعبادة الله والتوحيد.

كما وأنّ إرسال الأنبياء والمرسلين مظهر آخر من مظاهر الرحمة الإلهية، فبعد أن منحنا الله العقل والفطرة السليمة بعث لنا الأنبياء والكتب، وأرسل لنا هداةً راشدين يدلّوننا على الطريق الصحيح... كلّ تلك من مظاهر الرحمة الإلهية الواسعة.

المغفرة... مظهر من مظاهر الرحمة الإلهية

والمغفرة أيضاً من مظاهر وتجلّيات الرحمة الإلهية، حيث تشمل البشر في الآخرة، وهي بمعنىٰ غسل الآثار السيّئة للمعصية وإزالتها عن روح الإنسان؛ لأنّ المعصية والذنب تترك آثاراً سلبية علىٰ روح الإنسان، وهذه الآثار هي التي تظهر بصورة عذاب وعقاب في عالم الآخرة.

---

١. الروم: ٣٠.

إنّ مغفرة الله تعالىٰ تقضي علىٰ الملكات القبيحة، وتزيل الآثار السيّئة التي تخلّفها المعصية، وتطهّر روح الإنسان وتصلحها كما تطهّر الطبيعة كثيراً من الأشياء في الوجود، وكما يقضي الدواء على الميكروبات ويزيل آثار المرض.

وبناءً علىٰ هذا فالمغفرة والتجاوز عن الذنب ظاهرة استثنائية ومختلفة، لاتشبه ما هو جارٍ بين البشر؛ كصفح الحاكم عن المجرم، بل هي إحدىٰ مظاهر غَلَبة رحمة الله تعالىٰ في عالم الكون وتجلّياتها فيه؛ لذا لاينبغي تصوّر أنّ مغفرة الله تشبه بالضبط كالعفو والصفح الشائع بين أبناء البشر، بل هناك فارق كبير بينهما؛ لأنّه لو ارتكب الإنسان جرماً فوجبت معاقبته، ثم عفا الحاكم عنه، لم يستطع ذلك الحاكم أن يحدث تغييراً في شخصية المجرم وروحه، بل يقول له فقط: «عفوت عنك وسامحتك».

بل يمكن القول في المعاصي الدنيوية: إنّ المعاصي الدنيوية الصرفة لاتترك أثراً في روح الإنسان، لا نفس المعاصي ولا عقوباتها، خلافاً للمعاصي الإلهية، وكذلك العفو والصفح من قبله، حيث تنطوي علىٰ سلسلة من الآثار والتغيّرات الروحية.

فعندما يرتكب الإنسان معصيةً لايكون قد أتىٰ بعملٍ وانتهىٰ، بل لمّا يزني الإنسان المسلم أو يكذب أو يغتاب أحداً أو يشرب الخمر أو يقتل نفساً محترمة بغير الحقّ أو يرتكب معصيةً أخرىٰ... تظهر آثار ذلك علىٰ روحه ونفسه، لايستطيع كتمانها ولاتجاوزها ولو بعد حين.

إنّ مخالفة أمر الله، وعدم رعاية أوامره ونواهيه، تترك آثاراً سلبية علىٰ روح الإنسان، وتقصيه عن القرب الإلهي؛ ولهذا جاء في الروايات أنّ الإنسان يُحشر يوم القيامة بصورةٍ قد بدت أعماله في نفسه؛ أي أصبح أثر العمل ملكة نفسانية تظهر صورتها في نفسه، وقد يتّخذ شكل حيوانٍ بعينه ويحشر بصورته.

فالمعصية في نفس الإنسان كالأوساخ في الصفحة البيضاء، حيث جاء في الروايات أنّ قلب الإنسان كالصفحة البيضاء، وعندما يذنب تظهر فيه نكتة سوداء؛ وما هذه النكتة السوداء إلّا الأثر الذي تركته المعصية علىٰ نفس الإنسان، وكلّما ازدادت معاصيه اتّسعت مساحة تلك النكتة حتّىٰ تسودّ الصفحة بأكملها، ويصبح قلب الإنسان ونفسه سوداء مظلمة. هذا هو أثر معصية الله تبارك وتعالىٰ.

أمّا لو شملت المغفرة الإلهية حال هذا الشخص العاصي، فهذا لايعني الصفح والمسامحة فقط، بل بما أنّ المغفرة من فروع الرحمة الإلهية الواسعة، ومن مظاهر تجلّيات رحمته تعالىٰ، تعني غسل النفس وتطهيرها من الآثار السيّئة للمعصية.

فالتوبة إحدىٰ طرق المغفرة، فمن يندم علىٰ عملٍ قام به تراه يبكي ويتوسّل ويذرف الدموع ويتوب، فيحدث انقلاب في روحه، وهذا الانقلاب الداخلي يطهّر روحه ونفسه من الأدناس والأدران؛ لذا إن لم يتعدّ الاستغفار اللسان إلى القلب والباطن فهو استهزاء بحسب ما جاء في الروايات.

وعلىٰ أية حال، المغفرة الإلهية إحدىٰ مظاهر الرحمة الإلهية؛ لذا قال تعالىٰ علىٰ لسان الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾[1] والفاء في كلمة «فاغفر» في هذه الآية الشريفة هي فاء التفريع؛ أي: ولأنّ رحمتك واسعة وشاملة، فاجعلها تشمل الذين تابوا واتّبعوا سبيلك.

إنّ الرحمة الواسعة والمغفرة الإلهية تطهّر النفوس التي تكدّرت وأظلمت، وأصابتها القسوة نتيجة المعصية والبُعد عن ساحة القدس الإلهية، وذلك نظير ما تقوم به مياه البحار أو الأشجار والنباتات مثلاً من تنقية الهواء المليء بالغازات السامّة، ونظير الموجودات الخاصّة التي أوكل الله لها تحليل الفضلات الموجودة على الأرض وفي البحار وغيرها، وتنظيف الطبيعة منها.

وكذا الحال في النفس البشرية حينما تتّسخ، فيجب تطهيرها بالاستغفار، ولذا جاء في بعض الروايات عن الصلاة:

«إنّما مثل الصلاة فيكم كمثل السريّ ـ وهو النهر ـ علىٰ باب أحدكم، يخرج إليه في اليوم والليلة يغتسل منه خمس مرّات، فلم يبق الدرن مع الغسل خمس مرّات، ولم تبق الذنوب مع الصلاة خمس مرّات»[2].

وجاء في رواية أخرىٰ: ***«لو كان علىٰ باب دار أحدكم نهر فاغتسل***

---

١. غافر: ٧.

٢. الكافي ١: ٢١١ ح٦٤٠.

في كلّ يومٍ منه خمس مرّات، أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟» قلنا: لا، قال: *«فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجاري، كلّما صلّى صلاةً كفّرت ما بينهما من الذنوب»*[١].

إنّ جميع أسباب المغفرة؛ كالتوبة والصلاة والأعمال الصالحة... وغيرها، عبارة عن وسائل لتطهير الروح من الأقذار، ومن ثم تشمل المغفرة الإلهية حال الإنسان.

فالمقدّمة الأُولىٰ هي أنّ الرحمة الإلهية غالبة وشاملة لكلّ شيء، والمغفرة الإلهية أحد مصاديقها ومظاهرها.

المقدّمة الثانية: نظام العلل والأسباب

كما أنّ الرحمة الإلهية في هذا العالم تسير وفق نظام خاصّ، ولها عللها وأسبابها الخاصّة، فإنّ شمول المغفرة للعباد تجري أيضاً وفق نظامٍ خاص، ولها أسبابها وعللها الخاصة بها. وحيث إنّ كلّ شيء يفتقر إلى العلّة، فإنّ رحمة الله أيضاً لاتتخلّف عن قانون العلّية.

فإن أراد الله تنقية الهواء جعل مياه البحار والأشجار والنباتات سبباً لذلك، وإن أراد أن يقضي على المرض الفلاني جعل سببه في النبات أو الغذاء أو الدواء الفلاني، وإذا أراد جعل بدن الإنسان مقاوماً للسموم والآفات والميكروبات لئلّا يفنىٰ ويموت جعل في بدنه قوىً تدافع عنه.

---

١. الكافي ٢: ٢٣٧ ح٩٣٨.

وكذا هذا القانون يجري بشأن هداية البشر أيضاً، فإن أراد الله هداية البشر ـوهي إحدىٰ مظاهر رحمته تعالىٰ ـ جعل تلك الهداية ذات نظامٍ خاص. ولم يرسل الله تعالىٰ الوحي إلىٰ أيّ شخصٍ كان، بل حدّد أفراداً ليكونوا رسلاً وأنبياء، وجعل لكلٍّ منهم معجزات، وهذه المعجزات متفاوتة فيما بينها أيضاً.

إذن، هداية الخلق التي تعتبر من مظاهر وتجلّيات الرحمة الإلهية ذات أسبابٍ وعللٍ خاصة، وتسير وفق نظامٍ خاص.

أسباب المغفرة

إنّ شمول المغفرة للعباد يخضع لنظامٍ خاصّ، وله أسبابه الخاصة أيضاً، والتوبة إحدىٰ تلك الأسباب. والتوبة أمر عام، فكلّ من تاب ـحتّىٰ المشرك إن تاب عن شركه ـ عفا الله عنه وغفر له، كما قال تعالىٰ في محكم كتابه المبين:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[1].

والسبب الآخر من أسباب المغفرة هو العمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[2].

فالسيّئة قد ارتكبت في زمنٍ محدّد وانتهىٰ، فلا وجود لها الآن لكي تزيلها الحسنة. إذن السيّئة نفسها غير باقية، إلّا أنّ أثرها باقٍ في الروح، وتلك الظلمة والكدورة التي أوجدتها السيّئة في صفحة النفس

---

١. طه: ٨٢.

٢. هود: ١١٤.

هي التي لم تزل موجودة كأثرٍ باقٍ لها، والحسنات تمحو تلك الآثار والكدورة.

والسبب الآخر من أسباب محو الذنوب هو ترك الكبائر، فإن ارتكب الإنسان إحدىٰ الصغائر، ثم ترك الكبائر وأقلع عنها، غفر الله له حتّىٰ لو لم يتب عن الصغائر؛ مع العلم أنّ تكرار الصغائر والإصرار عليها يجعلها من الكبائر، قال تعالىٰ:

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾[1].

إنّ هذا التكفير للصغائر يعدّ من مظاهر المغفرة والرحمة الإلهية الواسعة.

وفي آية أخرىٰ بعد أن بيّن أنّه تعالىٰ يجزي الذين أحسنوا بالحسنىٰ قال:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[2].

والسبب الآخر من أسباب المغفرة هو الشفاعة، بمعنىٰ أنّه لو كان للشخص الفلاني سيّئات، ولم يوفّق للتوبة والاستغفار في دار الدنيا، ولم تكن أعماله الحسنىٰ تؤهّله للتجاوز عنها، وبالتالي حمل معه بعض سيئاته إلىٰ عالم الآخرة، فحينئذٍ تقتضي الرحمة الإلهية الواسعة

---

١. النساء: ٣١.

٢. النجم: ٣٢.

جعله مستطيعاً لنيل المغفرة بطريقةٍ ما، وهي في هذا المجال شموله بالمغفرة والرحمة بتوسّط وشفاعة النفوس الكاملة كالأنبياء والأولياء عليهم السلام؛ وكذلك الشفاعة تسير في ضوء نظامٍ خاصّ، ووفق حسابات معيّنة.

دور الشفاعة في شمول المغفرة

إنّ معنىٰ شمول المرء بالرحمة والمغفرة عن طريق الشفاعة هو أنّه كما يحصل تحوّل لدىٰ الإنسان أثناء التوبة، وما يحدث من تحوّلٍ أيضاً نتيجة أعماله الحسنة حيث يؤدّي إلىٰ محو سيئاته وذنوبه، ففي الشفاعة تمحى الآثار السلبية للمعاصي من نفس الشخص العاصي بفعل النفوس الكاملة للأنبياء والأولياء عليهم السلام، كما ورد في بعض الروايات: أنّ النبي صلى الله عليه وآله يطهّر بعض المسلمين في حوض الكوثر، وربّما يشير ذلك إلىٰ هذا الموضوع.

ونحن لانعرف طريقة محو الذنوب وما يجري في عملية تطهير الإنسان من آثار الذنوب والمعاصي؛ لكنّنا نعلم هذا المقدار وهو أنّه كما يحدث تغيير في نفس الإنسان من جراء التوبة والاستغفار و... في هذا العالم، فليس كذلك ما يحدث في الآخرة من طلب الشفعاء من الله تعالىٰ أن لايعذّب هذا الشخص؛ لأنّه علىٰ فرض عدم تعذيبه وإلغاء عقوبته، كيف يدخل الجنّة ولمّا لم تطهر روحه بعد، وما زالت تحمل تلك الأقذار؟

فإن توفّرت جميع شروط الشفاعة، ومنها قابلية وصلاحية الشخص للشفاعة، يحدث الشفيع تغييراً ملحوظاً في نفس ذلك الشخص، ومزيلاً عنه الأدناس والأرجاس، ومطهّراً لروحه ونفسه بالتصرّف الولائي والعناية الإلهية كما يطهَّر القميص من الأوساخ؛ وبهذا الشكل تشمله المغفرة الإلهية.

وبناءً علىٰ هذا، فالقابلية أمر مهم؛ فرغم أنّ المغفرة الإلهية واسعة وعامة، إلّا أنّها في يوم القيامة لاتشمل سوىٰ من امتلك قابلية التطهير، كما هو الحال في هذا العالم، فرحمة الله تعالىٰ عامة، والأمطار رحمة إلهية ولاشك، لكن هناك أراضٍ ذات قابلية للمطر فينبت فيها الزرع وتنمو أنواع النباتات، بينما هناك أراضٍ تفتقر إلىٰ هذه القابلية، كأن تكون مزبلةً مثلاً، فلا يزيدها المطر إلّا تعفّناً، يقول الشاعر:

المطر في لطافة طبعه
لايختلف طبعه إذا هطل
يضفيَ على الحدائق بهجةً ورونقا
ولايزيد في السبخة إلّا البلل

يعني: رحمة الله عامة وواسعة، لكن الأرض تختلف في خصوص قابليتها على الاستعادة من هذه البركة.

وكذلك في يوم القيامة يكون بوسع المغفرة الإلهية أن تشمل الجميع؛ لكن قابلية الإنسان تختلف من شخص إلىٰ آخر، فبعض البشر ذوو قابلية، وبعضهم ليسوا كذلك.

وعلىٰ أيّة حال، إذا توفّرت الشروط فإنّ النفوس الكاملة الحائزة علىٰ مقام الولاية الإلهية تطهّر صفحة النفس الإنسانية المتكدّرة من خلال التصرّفات الولائية.

لكن هذه النفوس الكاملة عبارة عن واسطة، والفيض يصل من الله تعالى، وهو نظير ما يحدث في هذا العالم من أنّ الله تعالى يبلغ رحمته عبر وسائط ووسائل، فينقي الهواء مثلاً بواسطة موجودات خاصّة؛ وكذلك في العالم الأُخروي تطهِّر النفس المريضة والملوثة في حالة امتلاكها القابلية لذلك بواسطة هذه النفوس الكاملة والسامية.

أمّا كيفية حصول الشفاعة، فبالنظر إلىٰ أنّ الرحمة والمغفرة الإلهية تشمل ذوي اللياقة والقابلية، يُحدث الشفيع تغييراً في نفس المستحقّ للشفاعة من خلال تطبيق الولاية، فيزيل عنه الأقذار المتولّدة من المعصية، ويطهّر نفسه وروحه.

فالإنسان حينما يرتكب معصيةً ما، يشعر بحدوث كدورة في نفسه، وهذا من النِعَم الإلهية عليه، فما لم ينتابه هذا الشعور لايبادر إلىٰ التوبة.

فعندما يرى الإنسان الذي بدرت منه بعض المعاصي والخطايا أنّه منذ مدة لم يطرق باب التوبة، ولم يقرأ دعاءً، ولم يبكِ، ولم يحضر مجلساً للوعظ والإرشاد، ولم يقرأ القرآن، ويرىٰ أنّه غارق في الدنيا وزخارفها، والمادّيات التي تحيط به والزوجة والأولاد والهموم الواردة عليه جرّاء اللهث وراء الأموال والمركز الاجتماعي، فعندما

يلتفت إلىٰ هذه ينتابه شعور بالتكدّر، يدفعه إلىٰ ترك كلّ ذلك والتوجّه إلىٰ ما يزيل ذلك، وعندما يشترك في مجلسٍ للدعاء، ويقرأ دعاء كميل أو الافتتاح، أو لا أقلّ يقرأ مقاطع من دعاء أبي حمزة الثمالي في أسحار شهر رمضان المبارك، فتنهمر دموعه علىٰ خدّيه، يشعر إذ ذاك بصفاء القلب والنورانية والرغبة في الانطلاق والطيران. هذا هو التغيير الحادث في النفس جرّاء اللطف الإلهي على الإنسان.

فالبكاء والإنابة طهّرا روحه، ونوّرا قلبه، وهو نظير ما يحصل للملابس بعد غسلها وتطهيرها، كذلك في الشفاعة يحصل للإنسان تغيير علىٰ يد الأنبياء والأولياء والشفعاء بإذن الله تعالىٰ إن كان ممّن لهم قابلية الشفاعة.

الفصل الرابع

شفاعة الحقّ وشفاعة الباطل

الفارق بين شفاعة الحقّ وشفاعة الباطل

ويتلخّص ذلك بين هذين النوعين من الشفاعة بما يلي:

١ ـ تبدأ الشفاعة الصحيحة والواقعية من الله وتختتم بالشخص العاصي؛ إلّا أنّ الشفاعة الباطلة ـ وفقاً لما هو شائع ومتداول في المجتمعات البشرية ـ تبدأ من الشخص المذنب وتختتم بالحاكم أو من بيده عقاب المجرم.

ففي الشفاعة الصحيحة يبعث الله الوسيلة والواسطة، فيرد الشفيع ميدان الشفاعة بإرادة منه تعالىٰ، ويجعل المذنب مشمولاً لرحمة الله الواسعة، والشفيع الواقعي في الحقيقة هو صفة متجلّية للرحمة الإلهية. أمّا في الشفاعة الباطلة فالمذنب والمجرم هو الباعث والمحفّز للشفيع، فما الشفيع إلّا واسطة دفعه المجرم إلى الشفاعة، وفي الحقيقة يقع الشفيع تحت تأثير المجرم العاصي.

والآيات التي تؤكّد علىٰ اختصاص الشفاعة بالله تعالىٰ تشير إلىٰ أنّ الشفاعة لايمكن أن تحصل دونما إذنٍ منه تعالىٰ، وذلك نحو قوله

تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾[١].

هذه الآية الشريفة خصّت جميع أنواع الشفاعات بالله تعالىٰ، إذ الشفاعة علىٰ أنواع مختلفة، فهناك شفاعات تحصل علىٰ أيدي الأنبياء، وأخرىٰ علىٰ يد الأولياء، والملائكة والمؤمنين و...؛ فكما تكون الأسباب في نظام التكوين منه تعالىٰ، وليس لها استقلال حياله، كذلك في يوم القيامة تُبعث النفوس الكاملة التي تكون واسطة في إيصال رحمة ومغفرة الحقّ تعالىٰ من قبله أيضاً، فلا تشفع إلّا بإذنه وإرادته، وليس للمذنب قدرة علىٰ نصب الشفيع أبداً، كما أشار عدد من الآيات الكريمة إلىٰ هذا الموضوع، منها:

أ ـ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[٢].

ب ـ ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٣]

ج ـ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾[٤]

وثمة عدد آخر من الآيات التي تؤكّد علىٰ استحالة حصول الشفاعة من دون إذنٍ من الله تعالىٰ.

وفي بعض الأدعية نسأل الله جلّ وعلا أن يجعل الأئمة المعصومين عليهم السلام شفعاء لنا، كما نقرأ ذلك في الدعاء الوارد بعد زيارة

---

١. الزمر: ٤٤.

٢. السجدة: ٤.

٣. البقرة: ٢٥٥.

٤. طه: ١٠٩.

الإمام الرضا عليه السلام: ***«وأبلغ أئمتي سلامي ودعائي وشفّعهم في جميع ما سألتك»***[١].

٢ ـ والفارق الآخر بين هذين النوعين من الشفاعة هو أنّ الناس لهم اليد الطولىٰ في انتخاب الشفيع في الشفاعة البشرية، فالمذنب هو من ينتخب الشفيع؛ أمّا في شفاعة يوم القيامة فمن ينتخب الشفيع هو الله، وبمقتضىٰ رحمته الواسعة يختار شفعاء من النفوس الكاملة لغفران ذنوب المذنبين.

والمشركون يتصوّرون أنّهم قادرون علىٰ انتخاب شفعاء لهم؛ لذا جعلوا الأصنام شفعاءهم، فرفض القرآن الكريم هذه التصوّرات وعدّها باطلةً، وردّ عليهم بصراحة في عدة آيات بأنّه لايحقّ لأحدٍ انتخاب الشفيع ولا الشفاعة من دون إذنه.

٣ ـ في الشفاعة الباطلة يقع المشفوع عنده ـ صاحب الحكومة والجاه ـ تحت تأثير الشفيع، ويحدث تغيير في إرادته من ناحية إجراء الحكم والقانون، في حين لايحصل أيّ تغيير في المذنب والمجرم. أمّا في الشفاعة الصحيحة فصاحب القدرة ـ أي الله سبحانه ـ يؤثّر في شخص الشفيع ويدفعه إلى الشفاعة، والشفيع ـ كما أوضحنا سابقاً ـ يجري تحوّلاً في شخص المذنب، حيث يطهّره من الأدران والأدناس الروحية وآثار الذنب.

٤ ـ في الشفاعة الباطلة، يمكن أن تشمل كلّ أنواع المذنبين

---

١. بحار الأنوار ٩٩: ٥٧.

بالشفاعة؛ وإن كان بعض الأفراد لا مجال للشفاعة لهم من وجهة نظر صاحب القرار والقدرة؛ لكن علىٰ كلّ حال ليس هناك ضوابط خاصة للشفاعة بالباطل. أمّا في الشفاعة الحقّة فالأمر علىٰ عكس ذلك تماماً، ولايكون كلّ مذنب مشمولاً بالشفاعة.

٥ ـ الشفاعة الدنيوية نوع من التمييز في القانون؛ لأنّ القانون لايؤخذ بنظر الاعتبار بالنسبة للمشفوع له، أو قل: إنّه يستثنىٰ من القانون؛ في حين أنّه يسري علىٰ من لم تشمله الشفاعة، أمّا في الشفاعة الأخروية فتعتبر الشفاعة رحمة إلهية غير محدودة، حيث تشمل كلّ من له اللياقة والقابلية على التطهير والتغيير، فتشفع النفوس الكاملة في تخليص أولئك المذنبين من العقوبة والجزاء، بحيث ترتفع عنهم عواقب خطاياهم بعد عملية التطهير؛ نظير الطبيب الذي يستأصل غدة مريضة أو مرضاً خبيثاً من بدن الإنسان بعملية جراحية، فيأمن المريض آنذاك من شرور ذلك المرض لا محالة.

وإن كانت الشفاعة الأُخروية غير شاملة لبعض الناس، فليس لوجود تمييز في القانون، بل لأنّهم يفتقرون إلى اللياقة والقابلية للشمول بالرحمة والمغفرة الإلهية، فهم المقصّرون لعدم استطاعتهم الحصول على اللياقة اللازمة لشمول الشفاعة.

إشكالات وردود

وبعد أن اتّضحت حقيقة الشفاعة تعريفاً ومفهوماً، وأقسامها العديدة، والفارق بين الشفاعة الدنيوية والأُخروية، نتناول الآن

الإشكالات المطروحة في هذا المجال والردّ عليها بموضوعية خالصة:

الإشكال الأول: رجاء الشفاعة يوجب الجرأة على المعصية.

ويمكن الردّ علىٰ هذا الإشكال بردٍّ نقضي وآخر حلّي:

أولاً: أنّ الله تعالىٰ قد وعد عباده في القرآن بالمغفرة قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1] وهذه الآية ناظرة إلىٰ غير صورة التوبة؛ لأنّ المشرك يغفر له أيضاً إن تاب عن شركه، لذا فالمراد من ذلك المغفرة التي وعد الله بها عباده في حالة عدم التوبة.

وعليه فإن كان رجاء الشفاعة يوجب حصول الجرأة للعاصي، كذلك الوعد بالمغفرة له مثل هذا الأثر في أنّه يوجب الجرأة على العصيان، فالوعد بالمغفرة كالوعد بالشفاعة، بل التوبة والوعد بقبولها ربّما تحفّز المذنب أكثر، وتمنحه الجرأة بصورة أشدّ علىٰ ارتكاب الذنب والمعصية، فيتجرّأ الإنسان علىٰ فعل المعصية علىٰ أمل التوبة بعد كلّ ذنب يصيبه.

ثانياً: الردّ الحلّي والأساسي هو أنّ الوعد بالشفاعة يوجب الجرأة في صورتين:

أولاهما: أن يعطىٰ وعد قطعي بالشفاعة لشخصٍ أو عنوانٍ خاصّ؛ كعنوان «العلماء» أو «السادة» مثلاً، أو أن يقطع وعد كذلك بشأن

---

١. النساء: ٤٨ و١١٦.

معصيةٍ خاصّة دونما قيد أو شرط.

وثانيهما: أن تقطع وعود حتمية بالشفاعة من دون قيد أو شـرط لمرتكبي كافّة المعاصي وجميع العقوبات، وفي جميع منازل الآخرة وأحوال يوم القيامة.

أمّا لو كانت الشفاعة غامضة ومبهمة من عدة جهات وأبعاد، وغير محدّدة لشخص أو عنوان خاص، حيث لم يتّضح حصولها لأيّ طائفةٍ وأيّ عصاة، أو اشتمالها أيّ أنواع المعاصي والخطايا، ولم تـخصّص في أيّ وقتٍ ولا في أي منزلٍ من منازل الآخرة وبأيّ شروط، ومع كلّ ذلك الإبهام لم تعط وعود قطعية بالشفاعة أيضاً؛ ففي هذه الحالة كيف تتسبّب في الجرأة على المعصية؟

إذ لا أحد يقطع بكونه مشمولاً للشفاعة؛ لما يلي:

أ ـ الشفاعة ـ كما صُرِّح بذلك في آيات الشفاعة ـ مشروطة بإذن الله تعالىٰ، فلا قدرة لشفيعٍ على الشفاعة بدون إذنٍ منه. ولا أحد من العصاة يوقن بأنّ الله يأذن بشمول الشفاعة له، وهذا الإبهام والغموض يقطع الطريق أمام المجرم والعاصي ويـحدّ مـن تـجرّيه وإحسـاسه بالحرية في التمادي على فعل العصيان.

ب ـ من شروط الشفاعة رضـا الله جـلّ وعـلا عـمّن سـتشمله الشفاعة، ولا أحد من العصاة يقطع بتوفر شروط الشـفاعة فـيه، ولا أحد يستطيع ارتكاب ما يروق له من المعاصي إيماناً منه بالشفاعة، أو أنّه يحرز رضا الله تعالى فيه كما هو واضح.

ج ـ من غير المعلوم أنّ الشفاعة تؤثّر في أيّ أشخاص، وفي أيّ نوعٍ من المعاصي.

د ـ زمن وقوع الشفاعة مجهول بالنسبة لنا؛ فيوم المحشر يعادل خمسين ألف سنةٍ ممّا نعدّ، وفي هذا اليوم مواقف ومنازل متعدّدة، وزمن ومرحلة وقوع الشفاعة غير واضح، فهل تقع بعد قطع الإنسان لجميع المراحل وعبوره كلّ المواقف الصعبة والعسيرة أم لا؟ وإن كان كذلك فيعني أنّ الإنسان سيعذَّب لسنوات مديدة.

كما وتحدث يوم المحشر أنواع العقوبات، ويجري فيه الحساب، فهو ليس أقلّ عقوبةً من عذاب جهنّم. إنّ العبور على الصراط، والخلاص من عذاب ومهالك يوم القيامة في غاية العسر والحرج، وقد وصف الله تعالىٰ ذلك اليوم قائلاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

وبقطع النظر عن يوم المحشر، فالإنسان يواجه أعماله طيلة مدّة عالم البرزخ الذي لايُعلم أمده، ولاتقلّ العقوبات والمصاعب فيه عن يوم القيامة.

---

١. الحجّ: ١ ـ ٢.

وبناءً علىٰ هذا، ومع كلّ هذا الغموض الذي يكتنف تلك المرحلة، لا أحد من العصاة يقطع بشمول الشفاعة له، وسوف لن يمتلك سوىٰ رجاء الشفاعة، والرجاء من العوامل البنّاءة للإنسان.

فمن ليس لديه أمل بالإصلاح والمستقبل الواعد، ولم يفكّر دائماً بالابتلاء بالعقوبة وورود نار جهنّم، لايطرأ علىٰ باله الإصلاح والتوبة أبداً، لأنّه غير مؤمّل للنجاة من نار جهنّم، وغير راجٍ للخلاص منها، فيحدّث نفسه بأنّه إذا كان من المقرّر أن أحترق بنار جهنّم إلى الأبد، فلماذا أحرم نفسي في الدنيا ممّا لذّ وطاب من المحارم، وأجعل تلك الدنيا جهنّم مبكرة لي؟

إنّ الإنسان الذي يأمل للنجاة، ويظنّ بوجود أشخاص يخلّصونه من الأدران، ويتملّكه شعور خاص بإمكان التحوّل والتحرّر من عواقب سوء الأعمال وبلوغ السعادة، يسعىٰ لإصلاح نفسه، وتغيير أُسلوب حياته، ويفكّر دائماً بالإنابة إلى الله سبحانه وتعالىٰ.

فالشفاعة ـ إذن ـ إحدى العوامل المساعدة علىٰ فتح نافذة الأمل بوجه المذنبين، كما هو حال التوبة تماماً، وما تلعبه مثل هذا الدور.

* * *

الإشكال الثاني: كيف يمكن أن يقع الله تعالىٰ تحت تأثير إرادة الشفيع، في حين أنّه لايتأثّر بموجودٍ؟

والردّ علىٰ هذا الإشكال واضح في ظلّ حقيقة الشفاعة؛ فهي صفة الرحمة والمغفرة الإلهية التي ينالها المذنب عن طريق النفوس الكاملة ووسائط الفيض، إذن هو الباعث للشفيع بالشفاعة، والشفاعة تبدأ منه

وتختتم بالمجرم والمذنب، لا أنّها تبدأ من المجرم، وأنّ الشفيع يؤثّر على الله.

وما منشأ هذا التصوّر إلّا لقياس الشفاعة الإلهية الصحيحة والحقيقية على الشفاعة الدنيوية التي تحصل بين أفراد البشر.

* * *

الإشكال الثالث: وهو عبارة عن قضية التمييز والاستثناء من القانون، وقد اتّضح جوابه خلال البحوث السابقة لدىٰ استعراضنا الفوارق بين الشفاعة الصحيحة والباطلة.

* * *

الإشكال الرابع: أنّ العاصي إمّا أن يستحقّ العقوبة أو لا، فإذا استحقّها علىٰ خلفية عصيانه، فإنّ رفع العقوبة عنه يعدّ نوعاً من الظلم؛ وإن لم يكن مستحقّاً لها فلا يعدّ رفعها ظلماً، بل هو عين العدل، إلّا أنّ أساس جعلها كان ظلماً لا محالة. فإذن إمّا أن يكون جعل العقوبة ظُلماً وإمّا أن يكون رفعها هو الظلم، وكلاهما فيه ظلم علىٰ كلّ حال، وكلاهما محال على الله تعالىٰ.

وبالنظر إلى البيان المتقدم حول الشفاعة، يجب القول ردّاً علىٰ هذا الإشكال: إن كان الشخص العاصي الذي شملته الشفاعة باقياً علىٰ وضعه السابق للعفو الإلهي، أمكن القول: إنّ هذا الصفح والعفو هو نوع من الظلم، وفي الحقيقة يصبح هذا النحو من الشفاعة كالشفاعة الجارية بين أفراد البشر، وهي الشفاعة الباطلة، ففيها كثير ما يحصل مثل هذه الأمور، وعليه فإمّا أن يكون جعل هذا القانون مردوداً بكونه

ظلماً أو أنّ عدم حبس الجاني ظلم؛ وعلىٰ كلّ حال، أحدهما مخالف للحقّ والواقع.

وبعبارة أخرىٰ: هذا العمل انتهاك للقانون، ونقيض لجعل العقوبة.

أمّا في موضوع المغفرة الإلهية والشفاعة، فمن يكون مشمولاً بالشفاعة لايبقىٰ علىٰ حاله السابق، بل يحدث لديه تحوّل خاصّ، فيطهر علىٰ أثره ويغدو مستحقّاً للمغفرة.

إنّ جميع ما تتعلّق به إرادة الله قائم علىٰ أساس الحكمة والمصلحة؛ لذا إن بدّل سبحانه لشخصٍ السيّئة بالحسنة، أو كفّر عنه السيّئة، فهو لم يفعل ذلك إلّا انطلاقاً من الحكمة والمصلحة التي لايعلمها إلّا هو سبحانه.

ولهذا السبب من يجتنب الكبائر يكفّر الله عنه الصغائر؛ لأنّ من ارتكب الصغيرة طبعت لها أثراً علىٰ نفسه، ولايدخل الجنّة ما لم يزول أثرها، فتكفّر السيئة أولاً أو تبدّل إلى الحسنة ثم يشمله الغفران، قال تعالىٰ: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[1].

وعلىٰ ضوء ذلك، فالشفاعة والغفران الإلهي ليس انتهاكاً للقانون ليكون ظلماً وجوراً، بل هو تغيير للموضوع، وهو ما يحصل في التوبة أيضاً، فيعمل الإنسان علىٰ تغيير نفسه في هذه الدنيا بالتوبة، فيخرج عن موضوع جزاء السيّئة ويدخل موضوع الحسنة.

---

١. الفرقان: ٧٠.

وكذلك الأمر في بعض الأعمال الصالحة الموجبة للتكفير التي تتحقّق علىٰ يد الشخص نفسه.

وفي موضوع الشفاعة يحدث هذا التغيير والتحوّل لدى الإنسان بواسطة النفوس الكاملة للأنبياء والأولياء عليهم السلام، فيخرج من موضوعٍ ويدخل في آخر، فتشمله الرحمة الإلهية بسعتها، ويعمّه الغفران الإلهي حينئذٍ.

الفصل الخامس

طلب الشفاعة والدعاء

طلب الشفاعة والدعاء

يظنّ البعض أنّ طلب الشفاعة من النبي والائمة عليهم السلام وأيّ مخلوق آخر غير الله تعالىٰ حرام وشرك، وقد استدلّوا لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[1] وقالوا: كلّ دعاءٍ عبادة، ودعاء غير الله عبادة له، لذا فهو شرك.

المعنى الثانوي للدعاء

للدعاء معنيان: معنىً عام وآخر خاص، المعنىٰ العام له هو النداء أو السؤال، أمّا معناه الخاص الذي يمثّل حقيقة عرفية فهو التوسّل وطلب الحاجة الذي يقوم به الإنسان نحو الله تعالىٰ، ويقوم به أيّ شخص تجاه ربّه ومعبوده، والمشركون يدعون أصنامهم علىٰ هذه الشاكلة[2].

وثمة معنىً آخر للدعاء وهو المعنى الثانوي؛ فحينما تقول: نعتزم

---

١. الجن: ١٨.

٢. سيأتي تفصيل معنى الدعاء لاحقاً، في الفصل الثامن من هذا الكتاب.

الدعاء، أو تستخدم عبارة «دعاء السحر» أو «دعاء أول الليل» وغيرها، تكون قد استعملت لفظ «الدعاء» بمعناه الثانوي.

ولهذا الاستعمال احتمالان: إمّا من باب إطلاق الكلّي علىٰ فردٍ من أفراده، فالدعاء بمعناه الخاصّ فرد من أفراد الدعاء اللغوي؛ لأنّه دعاء ونداء علىٰ كلّ حال، فقولك: «اللّهم إنّي أسألك» نداء، وكذلك قولك: «ياالله، ياالله، ياالله».

وإمّا أن نقول: إنّ لفظ الدعاء بمعناه الثاني (العبادة) أخذ وضعاً تعيّنياً وظهر بشكل حقيقة ثانوية؛ لأنّ العبادة هي قول أو فعل للإنسان يتمّ في غاية التذلّل والخضوع لآخر يعتقد أنّه ربّه ومالكه ومدبّر أموره.

والروايات التي وردت مثل: «الدعاء هو العبادة»[1] أو «الدعاء مخّ العبادة»[2] يراد هذا النوع من الدعاء؛ وإلّا فمناداتك لولدك ليست عبادة قطعاً. ولمّا قال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾[3] لايعني أنّه عَبَد قومه كما هو واضح.

وبناءً علىٰ ذلك فإنّ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ هو أنّه لاينبغي أن تدعو غير الله بالطريقة التي تدعوه فيها وتتضرّعوا إليه، وهو كلام سليم وصائب؛ لأنّه لايجب أن ندعو الله كما ندعو

---

١. بحار الأنوار ٩٣: ٣٠٠.

٢. المصدر السابق.

٣. نوح: ٥.

غيره، فنحن نؤمن أنّ الله تعالىٰ هو الخالق والرازق والفاعل لما يشاء، فندعوه ونطلب منه ونتذلّل إليه، ولاينبغي أن نفعل ذلك مع غيره أيّاً كان.

طلب الشفاعة دعاء بالمعنى الأول

وعلىٰ ضوء ذلك، فلايشمل النهي الوارد في الآية الدعاء غير العبادي، أي النداء والسؤال العادي. فعندما نطلب من النبي ﷺ ونقول: «يارسول الله، إشفع لي» فهذا دعاء بالمعنىٰ العام لا بالمعنى الخاص (الدعاء العبادي)، وهو نظير قولك: «يازيد، إفعل لي كذا» فهذا دعاء أيضاً لكنّه ليس عبادة؛ لذا لايشمله قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾.

وكلمة ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ في الآية المباركة مشعرة بهذا المعنىٰ؛ أي: لاتدعوا غير الله كما تدعون الله؛ فالدعاء المقرون بالتذلّل والخضوع والخشوع مع الاعتقاد بالربوبية والمالكية والمدبّرية خاصّ بالله جلّ وعلا دون غيره، والمشركون يدعون أصنامهم بحالةٍ من الخضوع مع الإيمان بكونهم آلهة معبودة، لذا يشمله النهي الوارد.

ولدينا آيات كثيرة نهت المشركين عن هذا النوع من الدعاء، ممّا يدلّل علىٰ أنّهم يعتقدون بكون الأصنام هي منشأً للرزق والبركة والتدبير، لذا فهم يطلبون منها حوائجهم. ونشير فيما يلي إلىٰ عددٍ من هذه الآيات:

أ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ

﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾[١] حيث نفهم منها أنّهم كانوا يطلبون من الأصنام العون، وإلّا فلا معنىً لاستهجان الآية هذا العمل.

ب ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[٢] أي: كما أنّكم غير قادرين علىٰ قضاء حوائجكم كذلك أولئك لايقدرون عليها.

ج ـ وقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[٣].

د ـ وقوله تعالىٰ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾[٤].

هـ ـ وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَاتَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَايَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾[٥].

ويتّضح منها: أنّ قصد من يعبد غير الله هو طلب الحوائج، والحصول على النفع ودفع الضرر.

و ـ وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَايَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾[٦].

ز ـ وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ

---

١. الأعراف: ١٩٧.

٢. الأعراف: ١٩٤.

٣. فاطر: ١٣.

٤. الرعد: ١٤.

٥. يونس: ١٠٦.

٦. الأحقاف: ٥.

كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَاتَحْوِيلاً﴾[١].

تبيّن هذه الآية بوضوح أنّ المشركين كانوا يطالبون الأصنام بكشف الضرّ عنهم، في وقتٍ يعتقدون أنّها آلهتهم، وإلّا لما كانوا يطلبون حوائجهم منها، ويطالبوها بكشف الضرّ عنهم، ولكانوا يقولون فقط: اشفع لنا أو ادعُ لنا، ولكان لهم الحقّ في الاعتراض علىٰ الآية بدعوىٰ أنّهم كانوا يقولون: إلهنا، نحن لم نطلب من الأصنام كشف الضرّ وحصول النفع، ولم نرجُ منها قضاء الحوائج.

وأمّا ما يقوم به بعض العوام جهلاً، من ربط قطعة قماشٍ أو خيطٍ بالشجرة ويطلبون منها حوائجهم، فإذا كانوا يفعلون ذلك عن وعي وإدراك فبالنظر إلىٰ عدم قدرة الشجرة علىٰ توجيه النفع والضرر، فيجب القول: إنّ عمل هؤلاء كعمل المشركين.

وقد يتوسّل الإنسان بأحد أولياء الله أو بانسانٍ صالحٍ ومقرَّبٍ من الله تعالىٰ، وبسبب بساطة روحه وسذاجته يربط قفلاً بالضريح أو بمكانٍ آخر، لكن اعتقاده ـ في الحقيقة والواقع ـ طلب الدعاء من صاحب القبر، لا أنّه يطلب حاجته من الضريح أو من غيره، فلا مانع من هذا النوع من التوسّل؛ أمّا لو طلب حاجته من الحجر أو الخشب أو الشجرة فقط فسيكون عمله شبيهاً بعمل المشركين، بالنظر إلىٰ أن ما يتوسّلون به لايملك لنفسه نفعاً ولاضرّاً.

وعلىٰ كلّ حال، وخلافاً لما يفعله المشركون، فإنّ توسّلنا

---

١. الإسراء: ٥٦.

بالنبي ﷺ أو بأولياء الله عليهم السلام وطلب الدعاء والشفاعة، بل حتّىٰ طلب الحاجة منهم، يعني توسّطهم إلى الله تعالىٰ في قضاء حوائجنا، وطلبهم منه سبحانه ذلك، ودعوته لاستجابة دعائنا، وقبول شفاعة النبي فينا، فمرجع كلّ تلك الطلبات إلى الله وحده، لكنّنا نطلب من النبي أو الولي أن يطلبوها لنا.

إذن، المنهيّ عنه في الآية هو الدعاء بالمعنى الخاص، أي ذي الطابع العبادي، وممّا يؤيّد ذلك العبارة الواردة في صدر الآية الكريمة، إذ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ ثم فرّع علىٰ ذلك مستعملاً فاء التفريع، فقال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ أي: بما أنّ المساجد لله وحده فلا يجب أن تدعوا فيها غيره معه.

فهذه الآية لاتريد أن تقول: لاتنادوا بعضكم بعضاً في المساجد، مثل: ناولني ماءً أو أعطني شاياً وغير ذلك، فإنّ ما نهي عنه في المساجد دعاء غير الله علىٰ نحو العبادة، أي: لاينبغي أن يطلب من غير الله ما يطلبه من الله علىٰ النحو نفسه.

أمّا لو قال: «يارسول الله، استغفر لي» فهذا محض التماس، ولايعدّ عبادةً قطعاً، فهو نظير قول القائل: ناولني ماءً.

ونقطة أخرىٰ تجدر الإشارة إليها هنا وهي أنّ ذكر كلمة «المساجد» في الآية الشريفة لايعني انحصار عدم جواز دعوة غير الله فيها فقط، وأنّه لا مانع من ذلك في غيرها من البقاع والأمكنة، بل لأنّ الدعاء والعبادة تقع في المسجد غالباً، فذكرت كلمة «المساجد» هنا.

تفسير آخر مروي للآية

روي عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام معنىً آخر للآية مغاير للمعنى المذكور، فقد نقل العلّامة الطباطبائي[١] عن سعيد بن جبير وبعض التابعين: أنّ المعتصم العباسي تساءل في مجلسٍ حضره جمع من العلماء وفيهم الإمام الجواد عليه السلام عن الموضع الذي يجب أن تُقطع منه يد السارق، فأجاب العلماء بأجوبة مختلفة، قال أحدهم: يجب أن تُقطع من المرفق، وقال آخر: من الكرسوع أو المعصم، وقيل غير ذلك، أمّا الإمام الجواد عليه السلام فقال:

«إنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أُصول الأصابع فتترك الكف».

فقيل له: وما الحجّة في ذلك؟ قال:

«قول رسول الله صلى الله عليه وآله: السجود على سبعة أجزاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قُطع من الكرسوع أو المرفق لم يدع له يداً يسجد عليها، وقال الله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ وما كان لله فلا يقطع...»[٢].

ففسّر الإمام عليه السلام كلمة «المساجد» في الآية بالمساجد السبعة،

---

١. تفسير الميزان ٢٠: ٥٠، ذيل الآية من سورة الجنّ.
٢. وسائل الشيعة ١٨: ٤٩٠ ح٣٤٦٦٥.

أي الأعــضاء السـبعة التـي يـضعها الإنسـان عـلى الأرض أثـناء السجود.

ولإيضاح المعنىٰ نقول: بعد الإمعان في الآية الشريفة نـرىٰ أنّـها تشتمل علىٰ تعليل وتفريع، فالجزء الأول منها تعليل والجزء الأخير تفريع، ولربط التفريع بالتعليل يجب أن نفسّر الآية كما يلي: مواضع السجود لله، فلا ينبغي أن يقع السجود لغيره، وبما أنّ ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ تعني الدعاء الخاصّ، وهو نوع من العبادة، تتفرّع النتيجة المـذكورة علىٰ هذا التعليل.

وربّما يكون بيان الإمام الجواد عليه السلام تأويـلاً للآيـة لاتـفسيراً لهـا بمعناها الظاهري.

وقد ذهب أغلب المفسّرين إلىٰ أنّ الدعاء في هـذه الآيـة يـعني العبادة، سواء قلنا بأنّ كلمة «المساجد» جمع مسجد كما ذهب أغلبهم إلىٰ ذلك، أم فسّرناها بمواضع السجود، وسواء كانت كلمة «تـدعوا» تعني الدعاء ذا الطابع العبادي، أو كما ذهب المفسّرون الذين فسّروا «لاتدعوا» بـ«لاتعبدوا».

قال صاحب تفسير المنار في ذيل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1]: الدعاء مخّ العـبادة وركـنها الأعـظم، فلا يصحّ توحيد أحدٍ لله إلّا بدعائه وحده، وعدم دعاء أحدٍ معه، كما

١. الأعراف: ١٩٤.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾، والمفسّرون يـقولون: إنّ الدعاء في مثل هذه الآيات معناه العبادة، من باب تسمية الكلّ باسم الجزء، فصاروا يفسّرون تدعون بتعبدون[١].

وبناءً علىٰ هذا، يصبح معنى الآية في ضـوء تـفسير المـفسّرين: لاتعبدوا مع الله غيره، أمّا صاحب تفسير المنار فلم يوافق علىٰ هذا المعنىٰ وقال: «تدعوا» هو الدعاء بالمعنى الخاصّ؛ أي بمعنى الدعاء العبادي الذي يدعو به الإنسان ربّه، وهـذا كـلام صـحيح، والمـعنى المشهور خلاف الظاهر، فالظاهر أنّ المراد من «لاتدعوا» النوع الثاني من الدعاء، أي الدعاء ذي الطابع العبادي لا مطلق الدعاء، ففرق بين أن نقول: «لاتدعوا» يعني «لاتعبدوا»، وبـين أن نـقول: إنّـها بـمعنى الدعاء، لكن نقصد الدعاء ذا الطابع العبادي دون غيره.

النسبة بين الدعاء والعبادة

النسبة بين الدعاء والعبادة حسب اصطلاح المناطقة هي العـموم والخصوص من وجه؛ أي بعض الدعاء ليس عبادةً، كـما لو دعـونا بعضنا البعض، أو نادينا أحداً، أو طلبنا منه أو سألناه شيئاً، ودعـاء النبي ﷺ والأولياء عليهم السلام والصالحين والملائكة بـهذه الصـورة دعـاء أيضاً، لكنّه ليس بعبادة.

وفيما يتعلّق بالشفاعة والتـوسّل، نـحن نـدعو النـبي ﷺ ونـلحّ

---

١. تفسير المنار ٩: ٥٢٧.

ونستغيث به، لكنّنا لانعتبره ربّاً وإلهاً ومالكاً وصاحب تأثير مستقلّ، لذا فنحن لانعبده.

كما وأنّ بعض العبادة ليست دعاءً، فدفع الزكاة والخمس عبادة، حيث يُعتبر فيها قصد القربة، لكنّها لاتحوي دعاء، والسجدة عبادة أيضاً، فحتّىٰ لو لم يقل الإنسان شيئاً وهوىٰ علىٰ الأرض لله معتقداً بربوبيّته وأُلوهيّته كان عمله عبادة؛ لكن ليس كلّ سجدة عبادة، فلم تكن سجدة الملائكة لآدم عبادة، وإلّا وجب القول: إنّ جميع الملائكة عدا إبليس قد أشركوا بمقتضىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾[1].

كذلك لم تكن سجدة يعقوب وزوجته وأبنائه ليوسف عبادةً له، وإلّا لزم من ذلك القول بشركهم جميعاً والعياذ بالله، فمن المؤكّد أنّ نبي الله يعقوب عليه السلام لم يكن يعبد غير الله، لذا ليس كلّ سجود عبادة، بل العبادة ما وقع منها علىٰ وجهٍ يعتقد الساجد بأُلوهية وربوبيّة المسجود له.

وقد يكون العمل الواحد عبادةً ودعاءً في نفس الوقت، كالصلاة مثلاً، أو كالسجدة المصحوبة بالدعاء، أو كالدعاء الذي يقرأه الإنسان قربةً إلىٰ الله تعالىٰ.

وهناك شواهد وقرائن أخرىٰ تؤيّد أنّ «لاتدعوا» في هذه الآية تعني الدعاء بمعناه الخاصّ ووقعت مورداً للنهي؛ منها الآيات التي

---

١. البقرة: ٣٤.

قرأناها من القرآن الكريم والمتضمّنة توبيخاً للمشركين، والمشتملة علىٰ تعابير مختلفة مشتقّة من مادة «الدعاء» و«الدعوة»، إذا ما أمعنّا النظر فيها نجد أنّ الدعاء استعمل فيها بمعناه الخاصّ[1].

ففي جميع تلك الآيات نجد أنّ الدعوة التي نُهي عنها أو وبِّخ أصحابها هي الدعاء بمعنى العبادة، المصحوب بالتذلّل والخضوع لغير الباري تعالىٰ.

١. انظر علىٰ سبيل المثال: فاطر: ١٣، يونس: ١٠٦، الأنعام: ٧١، المائدة: ٧٦.

الفصل السادس

طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله في حياته وبعد مماته

طلب الشفاعة من النبيﷺ في حياته وبعد مماته

نقلنا فيما مضىٰ شبهات البعض حول الدعاء وطلب الشفاعة من رسول الله ﷺ وأولياء الله عليهم السلام وأجبنا عنها، والآن نستعرض بعض الموارد المتعلّقة بطلب الشفاعة من النبي الأكرمﷺ أو أحدٍ من أهل بيته، ممّا وقع في حياته أو بعد وفاته؛ تأكيداً علىٰ ما تقدّم وانتصاراً له.

وهذه الموارد أكثر من أن تُحصىٰ، لكنّنا سنسلّط الضوء علىٰ عددٍ منها لغرض توضيح أنّ هذه القضية (طلب الشفاعة) لم تكن تمثّل إشكالاً ولا شبهةً للصحابة ولا للتابعين أو تابعي التابعين، بل وعامة المسلمين، وأنّ ادّعاء البعض الشاذّ عن إجماع الأمة بأنّ الأُمة مجمعة علىٰ بطلان هذا العمل هو غير صحيح مطلقاً، وأنّ هذه المسألة قد طُرحت كإشكال عند البعض النزر لا أكثر.

والبحث في هذا الموضوع يقع في مرحلتين زمنيتين مختلفتين:

إحداهما: غداة حياة النبي الأكرمﷺ.

والأخرىٰ: بعد مماته والتحاقه بالرفيق الأعلىٰ. ثم نحاول أن

نجيب عن السؤال القائل: هل هنا فارق بين طلب الشفاعة والدعاء بعد زمن النبي صلى الله عليه وآله عنه في حياته؟

طلب الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله في حياته

لايحتاج طلب الدعاء في زمن حياة النبي صلى الله عليه وآله إلىٰ مزيدٍ من البحث، إذ وافق القوم علىٰ صحّته ووقوعه، سواء للحاجات الدنيوية أم للحاجات الأُخروية.

يقول ابن تيمية في هذا السياق: طلب الدعاء من الحيّ مشروع ولا مانع منه.

ونقل عنه السيد محسن الأمين أنّه قال في رسالة «زيارة القبور»: ثبت عنه صلى الله عليه وآله: ***«ما من رجلٍ يدعو له أخوه بظهر الغيب دعوةً إلّا وكل الله بها مَلَكاً، كلّما دعا لأخيه دعوةً، قال الملك: ولك مثل ذلك»*** ومن المشروع في الدعاء إجابة غائبٍ لغائب، ولهذا أمر صلى الله عليه وآله بالصلاة عليه، وطلب الوسيلة له[١].

فالنبي صلى الله عليه وآله نفسه أمر بالدعاء وطلبه، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله دعاء بطلب نزول الرحمة عليه وعلى آله؛ لذا أمر صلى الله عليه وآله بالصلاة عليه وطلب الرحمة له، كما طلب الدعاء لنيل الوسيلة.

و«الوسيلة» درجة في الجنّة لايعطيها الله تعالىٰ إلّا لواحدٍ من البشر فقط، ولايُعرف من هو هذا الشخص؛ لذا أمر النبي صلى الله عليه وآله أمته وطلب منهم أن يدعوا الله ليعطىٰ تلك الوسيلة. وهناك تعابير عديدة

١. رسالة زيارة القبور: ١٥٥؛ نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٣٥.

بهذا المضمون في زيارة رسول الله ﷺ لدىٰ أهل السنّة والشيعة علىٰ حدٍّ سواء، فنقول في زيارته: «وأعطه الوسيلة».

وينقل ابن تيمية روايةً عن النبي ﷺ فيقول: ففي الحديث: ***«إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليَّ، فإنّ من صلّىٰ عليَّ مرةً صلّى الله عليه عشراً، ثم اسألوا الله لي الوسيلة، فإنّها درجة في الجنّة لاينبغي أن تكون إلّا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له شفاعتي يوم القيامة»***[1].

وبعد أن أخرج ابن تيمية بعض الروايات قال: ويشرع طلب الدعاء ممّن هو فوقه ودونه، فإنّ النبي ﷺ ودّع عمر إلى العمرة وقال: «لاتنسانا من دعائك ياأخي»... وثبت في الصحيح أنّه ﷺ ذكر أُويس القرني وقال لعمر: «إن استطعت أن يستغفر لك فافعل»[2].

وهذا الطلب عبارة عن طلب الدعاء، بل طلب الشفاعة، وذلك أنّ طلب الاستغفار هو نوع من طلب الدعاء والشفاعة.

ثم أضاف ابن تيمية قائلاً: وفي الصحيحين: كان بين أبي بكر وعمر شيء، فقال أبو بكر لعمر: استغفر لي...[3]، وثبت في الصحيحين: أنّ الناس لمّا أجدبوا، سألوا النبي ﷺ أن يستسقي لهم، فدعا الله لهم فسقوا[4].

---

١. رسالة زيارة القبور: ١٥٥؛ نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٣٥.

٢. المصدر السابق.

٣. صحيح البخاري ٦: ٧٥.

٤. المصدر السابق ٢: ٣٣ ـ ٣٨.

طلب الشفاعة من النبي ﷺ في حياته

وقد يسأل البعض أنّه لا إشكال في طلب الدعاء من الشخص الحيّ، لكن ما حكم طلب الشفاعة؟ هل هي جائزة أيضاً أم لا؟

بدايةً يجب أن نعرف معنىٰ طلب الشفاعة؛ فعندما يقول الشخص: «إشفع لي يارسول الله» ماذا يقصد من ذلك؟ فالمتعارف لدى الناس أنّ معنى الشفاعة هو أنّه لمّا يصدر من الإنسان خطأ أو ذنب أو تقصير تجاه المولىٰ، يطلب ممّن له أهلية التوسّط بينه وبين المولىٰ أن يطلب منه مسامحته والصفح عنه.

فمعنىٰ طلب الشفاعة هو أن يذهب الشخص إلىٰ طرفٍ ثالثٍ ويقول: صدر منّي ذنب وتقصير ممّا أدّىٰ إلىٰ أن يغضب عليَّ وليّ نعمتي، لذا أرجو منك أن تتوسّط لديه وتشفع لي في أن يتجاوز عمّا بدر منّي. وبعبارة أخرىٰ: طلب الشفاعة في أذهان عامة الناس هو نفس الطلب والدعاء؛ أي يعتزم الشخص أن يغدو واسطةً ويطلب شيئاً، وما الدعاء إلّا الطلب.

صور الشفاعة

ثمة تساؤل يقول: هل أنّ الشفاعة يوم القيامة هي الدعاء، أم هي شيء آخر بالإضافة إلى الدعاء؟ ولهذا الموضوع بحثه المستقلّ، فربّما يقال: الشفاعة شيء آخر غير الدعاء، كأن يدعو الشخص المذنب النبي ﷺ أو أحد أولياء الله عليهم السلام فيطلبون من الله سبحانه الإذن في ذلك، ثم يحدثون تغييراً في شخص المذنب بعد حصول الإذن.

وقد ورد في بعض الروايات: أنّ النبي ﷺ يطهّر بعض الأفراد في ماء الكوثر، لكن لم يرد توضيحاً حول كيف يكون ماء الكوثر؟ وكيف تحصل عملية التطهير؟ فربّما يقوم الشفيع بتطهير المذنب كما تطهَّر الملابس المتّسخة؛ لكن وعلىٰ كلّ حال، يلزم عليه أولاً أن يدعو الله ويطلب منه، وبعد أن يأذن له تعالىٰ يقوم بتطهير العاصي ليصبح مستحقّاً للغفران والنعمة الإلهية.

ولانريد تطويل الكلام في هذا السياق فعلاً، بل غاية ما نريده هنا هو بيان معنى الشفاعة عند الناس، وقد ذكرنا مسبقاً أنّ الناس يفسّرون الشفاعة بالتوسّط والدعاء والطلب.

ولمّا ذهب ابن تيمية إلىٰ صحّة طلب الدعاء، بل وتمسّك به، كما واستند إلى الأخبار الواردة في هذا المجال أيضاً، فإذن يتحتّم عليه القول بصحّة طلب الشفاعة أيضاً؛ لأنّ طلب الشفاعة لاتعدو عن كونها طلباً للدعاء والتوسّط عند النبي أو الولي.

ويلاحظ بوضوح هذا المطلب في الروايات المنقولة علىٰ هذا الصعيد، فمثلاً يعتبر طلب النبي ﷺ من أمته أن تدعو له في أن يعطيه الله تلك الدرجة الخاصة في الجنّة (الوسيلة) طلباً للدعاء، وهذا لايختلف عمّن يطلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فكلاهما جائز وبلا إشكال.

نماذج أخرىٰ

ثمة أدلّة أخرىٰ -غير ما نقل ابن تيمية- علىٰ جواز طلب الدعاء والشفاعة من الحيّ والميّت:

منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[١].

تفيد الآية أنّ العادة جرت لدى المسلمين على المجيء إلى النبي ﷺ وطلب الاستغفار لهم، وهو طلب للشفاعة كما هو واضح.

ومنها: ما قاله إخوة يوسف لمّا رجعوا إلىٰ أبيهم نادمين كما يرويه القرآن الكريم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾[٢].

وهذا الطلب هو طلب الشفاعة، أي: اطلب لنا من الله أن يغفر ذنوبنا ويتجاوز عن سيّئاتنا حيث أخطأنا في عملنا مع يوسف.

ومنها: ما أخرجه الترمذي في سننه ـ وهو من الصحاح المعروفة المعتبرة لدىٰ أهل السنّة ـ روايةً عن أنس بن مالك طلب فيها الشفاعة بصراحة، فقال: سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال ﷺ: ***«أنا فاعل»*** قلت: يارسول الله، فأين أطلبك؟ قال: ***«اطلبني أولاً ما تطلبني على الصراط»*** قال: قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: ***«فاطلبني عند الميزان»*** قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: ***«فاطلبني عند الحوض، فإنّي لا أُخطئ هذه المواضع»***[٣].

ومنها: ما نقل عن سواد بن قارب ـ وهو من أصحاب النبي ﷺ ـ أنّه نظم أشعاراً في مدح النبي ﷺ، فخاطبه في أحدها قائلاً:

---

١. النساء: ٦٤.

٢. يوسف: ٩٧.

٣. الجامع الصحيح ٤: ٦٢١، وانظر كشف الارتياب: ٢٢٥.

فكـن لي شـفيعاً يـوم لا ذو شـفاعةٍ

بمغنٍ فـتيلاً عـن سـواد بـن قـارب[١]

ففي الروايتين المذكورتين: طلب أنس بن مالك وسواد بن قارب من النبي الأكرم ﷺ الشفاعة، ولم يقل لهما الشفيع الأكـرم ﷺ: لِـمَ تطلبان الشفاعة؟ لِمَ تشركان؟ بل قال لأنس: «اطلبني عند الصراط... أو الميزان... أو الحوض»، ولو فرضنا أنّ الأدلّة التي أقـامها البـعض جارية هنا، كقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ أو بقوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ أو ظنّهم بأنّ «هذا العمل يشبه بعمل المشركين» وما إلىٰ ذلك، لكان أنس وسواد ـ وهما الصحابيان ـ قد أشركا!

ومنها: ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فـي مسـنده: أنّ خـادم رسول الله ﷺ قال: كان النبي ﷺ ممّا يقول للخادم: ***«ألك حـاجة؟»*** قال: حتّىٰ كان ذات يوم فقال: يـارسول الله، حـاجتي، قـال: ***«ومـا حاجتك؟»*** قال: حاجتي أن تشفع لي يوم القيامة، قال: ***«ومن دلّك علىٰ هذا؟»*** قال: ربّي[٢].

إطلاق طلب الدعاء والشفاعة من النبي ﷺ

ربّما يقال: طلبَ هذان الشخصان الشفاعة مـن النـبي ﷺ حـال حياته، بينما تذهبون أنتم إلىٰ طلب الشفاعة مـنه بـعد مـوته وفـي عالم البرزخ!

---

١. كشف الارتياب: ٢٢٥.

٢. مسند أحمد بن حنبل ٣: ٥٠٠.

والجواب: أنّ هؤلاء البعض المخالف لم يفرّقوا في استدلالهم علىٰ شرك طالب الشفاعة بين حال الحياة والممات، فلو كانوا قد قالوا: بما أنّ النبي ﷺ قد مات فطلب الشفاعة من الأموات شرك، أو قالوا: بعد أن مات النبي ﷺ صار كالجماد ـ والعياذ بالله ـ ولا يلتفت إلىٰ طلبنا منه فالطلب منه شرك، ففي هذه الحالة حيث ميّزوا بين حالتي الحياة والممات، قد يرد هذا القول صحيحاً، إلّا أنّهم في استدلالهم بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ فسّروا هذه الآية بشكلٍ يفهم منه أنّ طلب الشفاعة شرك مطلقاً، سواء كان من الحيّ أم من الميت؛ ولذا يكون طلب أنس وسواد مشمولاً لتلك الآية الشريفة.

كما وقالوا في دليلهم الآخر: الشفاعة فعل لايقدر عليه غير الله سبحانه، وطلب هذا الفعل من غيره شرك؛ لأنّ معنىٰ ذلك أنّنا طلبنا فعل الله من غيره. وفي هذا الاستدلال أيضاً لم يتعرّضوا للحياة والموت، بل اعتبروا طلب فعل الله من غيره شركاً مطلقاً.

وعلىٰ هذا الأساس، لم يميّزوا بين طلب الشفاعة من الحيّ وبين طلبها من الميّت، فكلاهما شرك بنظرهم!

والسؤال المطروح: ألم يكن النبي الأكرم ﷺ يعلم بذلك؟ فلِمَ لم يمنع أنس وسواد من طلب الشفاعة منه، ولم يقل لهما: إنّ ذلك شرك؟

وهل كان هذا البعض المدّعي يفهم معنى الآيات القرآنية أكثر ممّا يفهمها النبي الأعظم ﷺ إذ لم يقل: هذا شرك؟ أم أنّ هذه الآيات لم تطرق مسامع النبي ﷺ حتّىٰ جاء هؤلاء وأدلوا بها للناس؟!

وعلىٰ أية حال، لم يتمّ التمييز بين الحيّ والميّت في جميع أدلّتهم، وفي هاتين الروايتين نرىٰ أنّ النبي ﷺ لم يقل شيئاً لأنس بن مالك ولا لسواد بن قارب يُفهم منه حرمة التشفّع.

نماذج أخرىٰ

منها: ما جاء في السيرة الحلبية عن ابن إسحاق في كتاب «المبدأ» أنّ تُبّعاً الحِميري آمن بالنبي ﷺ وكتب كتاباً فوصل إلى النبي ﷺ بعد مبعثه، وفيه: ***«وإن لم أدركك فاشفع لي يوم القيامة ولاتنسني»***، وأنّ النبي ﷺ قال: ***«مرحباً بتبّع الأخ الصالح»*** ثلاث مرات[1].

فواضح أنّ «تُبّع» طلب الشفاعة من النبيﷺ، فمدحه النبي ﷺ، ولو كان طلب الشفاعة شركاً لما كان يحسن بالنبي الأكرم أن يثني عليه بهذا الشكل.

ومن جملة الأدلّة الأخرىٰ علىٰ جواز طلب الشفاعة: رواية وردت في صحيح مسلم، ورغم أنّها تتعلّق بالحي، إلّا أنّه يمكن الاستناد إليها بالنظر إلىٰ عدم وجود فرقٍ بين الحيّ والميت برأينا: قال عبدالله بن عباس: قال رسول الله ﷺ:

«ما من رجلٍ مسلم يموت، فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً، إلّا شفّعهم الله فيه»[2].

وصلاة الميت تتضمّن دعاءً للميّت وشهادتين، فهي إذاً عبارة عن

---

١. كشف الارتياب: ٢٢٦، نقلاً عن السيرة الحلبية ٢: ٨٨.

٢. صحيح مسلم ٣: ٥٣.

دعاء؛ لأنّها لاتحوي ركوعاً ولا سجوداً ولا قراءة الحمد ولا سورة غيرها، فإذا اجتمع أربعون شخصاً وصلّوا على الميّت ودعوا في صلاتهم، أو دعوا له فقط، فهذا الدعاء ـ في الحقيقة ـ شفاعة له، والله جلّ وعلا يجعل أولئك شفعاء له، ممّا يثبت إذنه في الشفاعة، وقبول شفاعتهم ودعائهم.

وفي حديث آخر روته عائشة عن النبي ﷺ قال:

«ما من ميّتٍ يصلّي عليه أُمةٌ من المسلمين، يبلغون مائة، كلّهم يشفعون له، إلّا شُفّعوا فيه»[1].

والسؤال الآن: إذا سمع شخص بهذه الروايات، أو بهاتين الروايتين على الأقلّ، فأوصىٰ بإحضار أربعين أو مائة شخص عند جنازته بعد موته ليدعوا له، فهل أنّه طلب شيئاً آخر غير الشفاعة؟ وهل هذا العمل شرك وفيه إشكال؟

ومنها: ما قاله ابن تيمية نفسه في رسالة «زيارة القبور»: إنّ أعرابياً قال للنبي ﷺ: جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال، فادعُ الله لنا، فإنّا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فسبّح رسول الله ﷺ... وقال:

«ويحك! إنّ الله لايستشفع به علىٰ أحدٍ من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك»[2].

---

١. صحيح مسلم ٣: ٥٣.

٢. رسالة زيارة القبور: ١٥٥، نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٢٦.

فقد استشفع الأعرابي بالطرفين، بالله على النبي ﷺ، وبه على الله سبحانه؛ فاستاء النبي الأكرم من ذلك ووبّخ الأعرابي. وبقليل من الامعان والتدبّر نجد أنّ النبي الأكرم اعترض علىٰ جملته الأولىٰ فقط وامتعض منها دون الأخرىٰ؛ لأنّ الشفيع أقلّ مرتبةً من المشفوع عنده دائماً، ولا عكس؛ ولم يبدِ اعتراضاً على الجملة الثانية، حيث جعل النبي ﷺ شفيعاً إلى الله، وهذا ـ في الحقيقة ـ تقرير وتأييد لكلام الأعرابي، لذا قال ابن تيمية: فأقرّه علىٰ قوله: إنّا نستشفع بك على الله، وأنكر قوله: نستشفع بالله عليك؛ لأنّ الشافع يسأل المشفوع إليه، والعبد يسأل ربّه ويستشفع إليه، والربّ تعالىٰ لايسأل العبد ولايستشفع به[1].

وبعد ذكر تلك الأمثلة، لايبقىٰ شكّ في وقوع قضايا في حياة النبي ﷺ طُلب فيها منه الدعاء والشفاعة، ولم يبدِ النبي الأكرم نهياً بخصوصها، بل أقرّ السائلين علىٰ قولهم ولم ينكره، فإنّ طلب الشفاعة هو بعينه طلب الدعاء، وهؤلاء المخالفون أجازوا طلب الدعاء، لكنّهم أنكروا ما يتعلّق بطلب الشفاعة، وأمّا في حياة النبي ﷺ فلاذوا بالصمت المطبق.

---

١. المصدران السابقان.

الفصل السابع

طلب الشفاعة
في كلام علماء وأئمة أهل السنّة

طلب الشفاعة في كلام علماء وأئمة أهل السنّة

قلنا: إن كان طلب الشفاعة حال حياة النبي ﷺ صحيحاً وغير منافٍ للتوحيد، فزمن الممات كزمن الحياة بلا فرق.

ثمة روايات منقولة من علماء وأئمة أهل السنّة كالإمام مالك وغيره تثبت أنّهم طلبوا الدعاء والشفاعة منه ﷺ بعد مماته، وذكروا آداب ذلك وسننه أيضاً.

فقد أخرج السمهودي وغيره من العلماء في كتب مناسك الحجّ وآداب الزيارة حديثاً شدّدوا على صحّة سنده، جاء فيه: قال عياض في الشفاء بسندٍ جيدٍ عن ابن حميد ـ أحد الرواة عن مالك ـ فيما يظهر قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ، فقال مالك: ياأمير المؤمنين، لاترفع صوتك في هذا المسجد، فإنّ الله تعالىٰ أدّب قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[1]،

---

١. الحجرات: ٢.

وذمّ قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾[١]، وذمّ قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ﴾[٢]، وأنّ حرمته ميتاً كحرمته حيّاً، فاستكان لها أبو جعفر فقال: ياأبا عبدالله، أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾[٣] الآية[٤].

ويبدو أنّ هذه القضية كانت مسرحاً للأخذ والردّ آنذاك؛ لذا استفسر المنصور الدوانيقي من مالك عن حقيقة الموضوع، فأجاب مالك بضرس قاطع: «بل استقبله واستشفع به»، وقد استنتج من الآية المذكورة أنّ للإنسان أن يطلب الشفاعة والدعاء والمغفرة من النبي ﷺ، ولا محذور من ذلك، والنبي بدوره يدعو الله، والله تعالى يقبل شفاعته.

وقد ذكر صاحب كتاب «الغدير» هذا الحديث أيضاً[٥]، كما أخرجه كثيرٌ من أهل السنّة في كتبهم المختلفة، وجميعهم رووه عن ابن حُمَيد وصحّحوا سنده.

---

١. الحجرات: ٣.

٢. الحجرات: ٤.

٣. النساء: ٦٤.

٤. وفاء الوفا ٤: ١٣٧٦، نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٥٥.

٥. الغدير ٥: ١٣٥.

وممّا لاشكّ فيه أنّ كلام الإمام مالك مع خليفة عصره قد شاع في المجتمع آنذاك؛ لأنّه لم يكن حواراً خاصّاً، بل وقع في مسجد رسول الله ﷺ وعلىٰ مرأىً ومسمعٍ من المسلمين، فإن كان هذا العمل مخالفاً للواقع ومؤدّياً للشرك، بل لو شمّ منه ـعلى الأقل ـ رائحة الشرك، لما تفوّه مالك بمثله قطّ وهو العالم الخبير.

ورغم عدم وجود أصحاب رسول الله ﷺ آنذاك، إلّا أنّ التابعين وتابعي التابعين كان لهم حضور قوي، وكان عصرهم قريباً من عصر رسول الله ﷺ، فلم ينكر أحد علىٰ مالك كلامه، ولو كان الإنكار قد وقع لنُقل إلينا قطعاً.

استشفاع أمير المؤمنين علي عليه السلام وأبي بكر

لمّا فرغ أمير المؤمنين علي عليه السلام من تغسيل وتكفين رسول الله ﷺ خاطبه قائلاً:

«بأبي أنت وأمي يارسول الله... اذكرنا عند ربّك واجعلنا من بالك»[1].

إنّ هذا الخطاب طلب للدعاء من الميّت، إذن أمير المؤمنين عليه السلام طلب الدعاء من النبي الأكرم بعد وفاته. ويروىٰ ما يشبه هذه القصة عن أبي بكر في كتاب «خلاصة الكلام» لأحد علماء أهل السنّة، قال: صحّ أنّه لمّا توفّي ﷺ أقبل أبو بكر رضي الله عنه فكشف عن وجهه، ثم أكبّ

---

١. نهج البلاغة: خطبة ٢٣٥، ضبط صبحي الصالح.

عليه فقبّله وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حيّاً وميّتاً، أذكرنا يـامحمد عند ربّك، ولنكن من بالك[١].

جولة في أحاديث علماء المذاهب الأربعة

ذكر العلّامة الأميني في المجلّد الخـامس مـن كـتاب «الغـدير» مطالب في غاية الأهمية في هذا السياق، وكذا العـلّامة مـير حـامد حسين في كتاب «عبقات الأنوار». وبعد أن بحث العـلّامة الأمـيني موضوع زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله واستحبابها وفضيلتها، نـقل زهـاء (٢٢) حديثاً بطرق مختلفة في هذا الإطار، كما وذكر لبعضها ٢٠ إلىٰ ٣٠ مصدراً وذكر لأحدها (٤١) مصدراً[٢]، وقد مرّ ذكـر بـعضها فـي الفصول السابقة.

وبعد سرده لتلك الأحاديث، نقل عبارات لأربعين عالماً من علماء المذاهب الأربعة حول آداب زيارة النبي صلى الله عليه وآله واستحبابها[٣]. ويـتّضح من خلالها الدعوىٰ بكون زيارة قبره صلى الله عليه وآله بـدعةً، مـمّا روّج له هـذا البعض الشاذّ، وأنّ علماء المذاهب الأخرىٰ لايشاطرونهم الرأي في ذلك.

ومن الجدير ذكره ما نقل العلّامة الأميني ـضـمن سـرده لكـلام علماء أهل السنّة ـكلاماً لأحد علماء المذهب المالكي وسمّاه بالإمام القدوة، وقال: قال الإمام القـدوة ابـن الحـاج مـحمد ابـن العـبدري

١. خلاصة الكلام، نقلاً عن كشف الارتياب: ٢٢٧.

٢. الغدير ٥: ٩٣.

٣. المصدر السابق: ١٠٩.

القيرواني المالكي (المتوفىٰ ٧٣٧هـ) في [المدخل] في فصل زيارة القبور: وأمّا عظيم جناب الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فيأتي إليهم الزائر، ويتعيّن عليه قصدهم من الأماكن البعيدة، فإذا جاء إليهم فليتّصف بالذلّ والانكسار والمسكنة، والفقر والفاقة والحاجة، والاضطرار والخضوع، ويحضر قلبه وخاطره إليهم، وإلىٰ مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره؛ لأنّهم لايبلون ولا يتغيّرون، ثم يثني على الله تعالىٰ بما هو أهله، ثم يصلّي عليهم... ثم يتوسّل إلى الله تعالى بهم في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه، ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم... فإنّهم باب الله المفتوح، وجرت سنّته سبحانه وتعالىٰ بقضاء الحوائج علىٰ أيديهم وبسببهم، ومن عجز عن الوصول فليرسل بالسلام إليهم، ويذكر ما يحتاج إليه من حوائجه ومغفرة ذنوبه و...[١] إلىٰ آخر كلامه حول زيارة جميع الأنبياء عليهم السلام.

ثم تعرّض بشكلٍ مفصّلٍ وطريف إلىٰ ما يخصّ زيارة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وبما أنّ كلامه طويل فقد اقتطفنا منه ما يلي: وأمّا في زيارة سيّد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وسلامه... فمن توسّل به أو استغاث به، أو طلب حوائجه منه، فلايردّ ولا يخيب... إنّ الزائر يشعر نفسه بأنّه واقف بين يديه عليه الصلاة والسلام كما هو في حياته، إذ لا فرق بين موته وحياته، أعني في مشاهدته لأُمته، ومعرفته بأحوالهم ونيّاتهم وعزائمهم وخواطرهم، ذلك عنده جليّ

١. الغدير: ١١١، نقلاً عن كتاب المدخل ١: ٢٥٧.

لا خفاء فيه... فالتوسّل به عليه الصلاة والسلام هو محلّ حطّ أحمال الأوزار وأثقال الذنوب والخطايا؛ لأنّ بركة شفاعته عليه الصلاة والسلام وعظمها عند ربّه لايتعاظمها ذنب، إذ إنّها أعظم من الجميع، فليستبشر من زاره، وليلتجئ إلى الله تعالىٰ بشفاعة نبيّه عليه الصلاة والسلام من لم يزره، [ويقول:] اللّهم لاتحرمنا من شفاعته بحرمته عندك آمين ربّ العالمين. ومن اعتقد خلاف هذا فهو المحروم، ألم يسمع قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ فمن جاءه ووقف ببابه وتوسّل به وجد الله تواباً رحيماً؛ لأنّ الله منزّه عن خلف الميعاد، وقد وعد سبحانه وتعالىٰ بالتوبة لمن جاءه ووقف ببابه، وسأله واستغفر ربّه، فهذا لايشكّ فيه ولايرتاب إلّا جاحد للدين، معاند لله ولرسوله ﷺ، نعوذ بالله من الحرمان[1].

بحث في أدعية وزيارات الرسول ﷺ

فيما يرتبط بأهمية زيارة الرسول الأكرم ﷺ، نقل العلّامة الأميني عبارات عن عدد آخر من العلماء، منهم: **أبو منصور الكرماني الحنفي**، **الغزالي** في «إحياء العلوم»، **الفاخوري** في «الكفاية»، **الشرنبلالي** في «مراقي الفلاح»، **السبكي والسمهودي والقسطلاني** وهم من شرّاح صحيح البخاري، **الحمزاوي العدوي** وغيرهم، حيث

---

١. الغدير ٥: ١١٢.

بلغت عباراتهم أربعين عبارة[١].

ثم أورد الأدعية والزيارات التي نقلوها، فعلىٰ سبيل المثال قالوا في من ينوب غيره لزيارة النبي صلى الله عليه وآله: ***«إنّ النائب يقول: السلام عليك يارسول الله، من فلان ابن فلان، يستشفع بك إلىٰ ربّك بالرحمة والمغفرة، فاشفع له»***[٢].

ثم نقل من كلامهم الأعمال المسنونة لزيارته صلى الله عليه وآله، فبلغت بعد حذف الموارد المتكرّرة أكثر من ٢٥ عملاً، من قبيل الغسل، ورعاية الأدب، وطريقة الزيارة وغيرها[٣].

ثم دخل باب الزيارات ونقل عنهم تسع صورٍ للزيارة، والشيعة لاتمتلك في كتب الأدعية والزيارات الشيعية سوىٰ عددٍ محدودٍ من الزيارات، لكنّهم ذكروا تسع صورٍ للزيارة، تشاهد فيها قضية طلب الشفاعة بوضوح.

فقد جاء في الزيارة السابعة ما يلي: «السلام عليك ياسيدي يارسول الله، السلام عليك يانبي الله، السلام عليك ياحبيب الله، السلام عليك يانبي الرحمة، السلام عليك ياشفيع الأمة... يارسول الله، نحن وفدك وزوّار حرمك، تشرّفنا بالحلول بين يديك، وجئنا... بقصد زيارتك لنفوز بشفاعتك... فإنّ الخطايا قد قصمت ظهورنا، والأوزار

---

١. الغدير: ١٠٩ ـ ١٢٥.

٢. المصدر السابق: ١٢٨.

٣. المصدر نفسه: ١٣٠ ـ ١٣٥.

قد أثقلت كواهلنا؛ وأنت الشافع المشفَّع، الموعود بالشفاعة العظمىٰ، والمقام المحمود والوسيلة، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ وقد جئناك ظالمين لأنفسنا، مستغفرين لذنوبنا، فاشفع لنا إلىٰ ربّك، واسأله أن يميتنا علىٰ سنّتك، وأن يحشرنا في زمرتك، وأن يوردنا حوضك، وأن يسقينا بكأسك... الشفاعة الشفاعة يارسول الله [تقولها ثلاثاً]...»[١].

وجاء في الزيارة الثامنة نظير هذه العبارات: «السلام عليك يارسول الله، أسألك الشفاعة الكبرىٰ، وأتوسّل بك إلى الله تعالىٰ في أن أموت مسلماً علىٰ ملّتك وسنّتك، وأن أُحشر في زمرة عباد الله الصالحين»[٢].

وبصورة عامة ورد في جميع هذه الزيارات توسّل ودعاء، وطلب للشفاعة، وتلاوة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾.

وبعد استعراض هذه الزيارات، ذكر العلّامة الأميني الأدعية التي تقرأ عند زيارته ﷺ تحت عنوان «الدعاء عند رأس النبي ﷺ»، ثم نقل عن عددٍ من العلماء أنّهم قالوا: ومن أحسن ما يقول بعد تجديد التوبة في ذلك الموقف الشريف، وتلاوة قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ هو: «نحن وفدك يارسول الله وزوّارك، جئناك لقضاء حقّك، وللتبرّك بزيارتك، والاستشفاع بك ممّا أثقل ظهورنا وأظلم

١. الغدير ٥: ١٣٨ ـ ١٣٩.

٢. المصدر السابق: ١٣٩.

قلوبنا [... فاستغفر لنا واشفع لنا إلىٰ ربّك ياشفيع المذنبين]»[١].

وبعد سرد هذه العبارات، نقل العلّامة الأميني عشرين عبارةً أُخرىٰ من علمائهم حول التوسّل والاستغاثة والاستشفاع بالنبي ﷺ عند قبره الشريف، أحد هؤلاء العلماء هو القسطلاني ـ أحد شرّاح صحيح البخاري ـ حيث قال في المواهب اللدنيّة: «وينبغي للزائر له ﷺ أن يكثر من الدعاء والتضرّع والاستغاثة، والتشفّع والتوسّل به ﷺ، فجدير بمن استشفع به أن يشفّعه الله فيه».

ثم فسّر جميع تلك الألفاظ قائلاً: «الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به إغاثته، وأن يحصّل له الغوث، فلا فرق بين أن يعبّر بلفظ الاستغاثة أو التوسّل أو التشفّع أو التوجّه أو التجوّه»[٢].

إنّ ادّعاءات البعض علىٰ أنّ «السلف الصالح» مجمع علىٰ أنّ طلب الشفاعة والدعاء والتوسّل شرك وحرام هو ادّعاء بلا دليل؛ كما وأنّه من غير المعلوم من هو «السلف» الصالح بالنسبة لهم؛ إذ إنّ علماء أهل السنّة الذين نقلنا عنهم بعض العبارات فيما مضىٰ هم من علماء المذاهب الأربعة، وجميعهم نقلوا زيارة النبي ﷺ ودعاءه والتوسّل به، وذكروا في كتبهم مراراً موضوع طلب الشفاعة بصورة خاصة.

* * *

---

١. الغدير ٥: ١٤١.

٢. المصدر السابق: ١٤٤.

إنّ ما ذكرناه إلى الآن كان يرتبط بموضوع طلب الشفاعة، أمّا الآن فندخل في صلب الموضوع وهو البحث في أصل الشفاعة، حيث إنّ هناك عدداً من الشبهات والأسئلة المثارة في هذا المجال، منها:

* ما هي حقيقة الشفاعة؟

* هل تشمل الشفاعة جميع الذنوب أم بعضها؟

* ما شروط الشفاعة؟

* من هو الشفيع؟

* من يستحقّ الشفاعة؟

ومن الضروري البحث في هذه الأمور؛ لأنّنا أحياناً نواجه تفريطاً أو إفراطاً في مجال الشفاعة، فيظنّ البعض أنّ الإمام الحسين عليه السلام ـ مثلاً ـ سيشفع لهم حتّىٰ لو تركوا الصلاة والصيام وأهملوا واجباتهم، فهم من أهل الجنّة قطعاً!

الفصل الثامن

الشيعة والشفاعة

(شبهات وردود)

الشيعة والشفاعة (شبهات وردود)

يؤمن البعض بأنّ الشفاعة يجب أن تُطلب من الله تبارك وتعالىٰ ليجعل النبي ﷺ أو الأولياء عليهم السلام شفعاء للإنسان؛ أمّا طلب الشفاعة من النبي ﷺ أو أحد الأولياء والصالحين فهو الشرك الأكبر!

ولم يقدّم هؤلاء دليلاً بيّناً يدعم مذهبهم، ولا برهاناً ساطعاً يؤكّد دعوتهم، بل اعتمدوا على الخطابة والشعارات غالباً. لنستعرض أدلّتهم بالتفصيل ثم نذكر ردودنا عليها.

الدليل الأول: أنّ الشفاعة لله فقط

يغلب علىٰ خطابات هؤلاء عبارة: «الشفاعة كلّها لله»[1]، ويتمسّكون لذلك بعددٍ من الآيات القرآنية.

وليس المراد من قولهم: «الشفاعة كلّها لله» أنّ الله يشفع عند أحد؛ لعدم وجود شخصٍ أرفع مكانةً منه تعالىٰ كي يشفع عنده، بل يقصدون أنّ أمر الشفاعة بيده وحده، ولا يحقّ لأحدٍ الشفاعة من دون إذنٍ منه.

---

١. كشف الارتياب: ٢٠٨.

وأساس هذا الموضوع صحيح مستوحىً من الآيات القرآنية؛ كقوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾[1].

بيد أنّهم يقولون: إنّ الشفاعة فعل الله، وطلب هذا الفعل من غيره شرك. ومردّ هذا الكلام إلىٰ قياسٍ: صغراه «الشفاعة لله» وكبراه «طلب الفعل الخاصّ بالله من غيره شركٌ».

وقد ذهب البعض إلىٰ ما يشبه هذا الاستدلال في غير الشفاعة أيضاً؛ كالتوسّل بالنبي ﷺ والأئمة الصالحين، فيقولون: من طلب من غير الله فعلاً من الأفعال الخاصّة به فهو مشرك!

ولتسليط الضوء علىٰ هذا الدليل، نطرح أولاً عدداً من الأسئلة، ثم نشرع بالإجابة عنها.

السؤال الأول: ما المقصود من كبرىٰ هذا الدليل؟ فإنّنا نقرّ بالصغرىٰ من أنّ «الشفاعة لله» و«أمر الشفاعة بيده»، فهذا صريح الآيات القرآنية الشريفة، لكن ما معنىٰ قولهم: «طلب الفعل الخاص بالله من غيره شركٌ»؟

ثمة توجيهات عدّة استوحيناها خلال قراءتنا لبعض الخطابات والنصوص الصادرة عن البعض:

التوجيه الأول: طلب الأمر غير المقدور شرك

رغم أنّ هناك ضبابية في كلمات وخطابات القوم فيما يتعلّق بالسؤال التالي: هل أنّ طلب الأمر غير المقدور من أحدٍ شرك أم لا؟

---

١. البقرة: ٢٥٥.

إذ نجد نوعاً من الإجمال والاختلاف في عباراتهم، إلّا أنّه من خلال متابعة كلماتهم المتناثرة نجد عبارات ربّما ترشدنا إلىٰ إيضاح هذا الدليل واستجلاء حيثياته. يقولون: طلب كلّ ما لايقدر عليه إلّا الله من غيره شركٌ[١].

فقد وردت في كتاب «الهدية السنيّة» وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل في هذا الخصوص، يقول صاحبه في الرسالة الثانية: ونثبت الشفاعة... بأن نقول: اللّهم شفِّع نبيّنا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة، أو اللّهم شفِّع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك، أو نحو ذلك ممّا يطلب من الله لا منهم. فلا يقال: يارسول الله أو ياوليّ الله أسألك الشفاعة أو غيرها، ممّا لايقدر عليه إلّا الله تعالىٰ، فإذا طلبت ذلك في أيام البرزخ كان من أقسام الشرك[٢].

فبقوله: «فلا يقال: يارسول الله...» يحاول تأسيس قاعدة كلّية تشمل الشفاعة وكلّ أنواع التوسّل والطلب، ودليله في ذلك: أنّ هذا لايقدر عليه إلّا الله، فهو شرك بطبيعة الحال.

ويقول أيضاً في الرسالة الأولىٰ من نفس الكتاب: فالمتعيّن علىٰ كلّ مسلمٍ صرف همّته إلىٰ ربّه بالإقبال إليه والاتّكال عليه، والقيام بحقّ العبودية له، فإذا مات موحّداً استشفع الله فيه نبيّه، بخلاف من أهمل ذلك وتركه، وارتكب ضدّه من الإقبال إلىٰ غير الله بالتوكّل عليه

١. كشف الارتياب: ٢٠٧ ـ ٢٠٨.
٢. المصدر السابق: ٢٠٧.

ورجائه فيما لايمكن وجوده إلّا من عند الله، والالتجاء إلىٰ ذلك الغير، مقبلاً علىٰ شفاعته متوكّلاً عليها، طالباً لها من النبي ﷺ أو غيره، فإنّ هذا بعينه فعل المشركين واعتقادهم، ولا نشأت فتنة في الوجود إلّا بهذا الاعتقاد[1].

وبناءً علىٰ هذا، فإذا ارتجىٰ الإنسان الشفاعة من النبي ﷺ، والحال أنّها بيد الله تعالى وحده، أو طلب منه شفاء مريضه، فقد ارتكب فعل المشركين، وتلك هي عقيدتهم، إذ إنّ الشفاعة والشفاء بيد الله؛ لأنّ الله تعالى يقول علىٰ لسان نبيّه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[2].

وعلىٰ هذا الأساس، فإنّ الشخص الذي يأمل من أحدٍ بما لايقدر عليه إلّا الله، ويطلبه منه فعلاً؛ فهو مشرك.

إذن فمعيارهم في العبارة الآنفة هو أنّ طلب ما لايمكن وجوده إلّا من عند الله هو فعل المشركين واعتقادهم.

وثمة كلام للشيخ محمد بن عبدالوهاب في رسالةٍ له ـ نقله عنه المرحوم محسن الأمين ـ يقول: الشفاعة شفاعتان: منفية ومثبتة؛ فالمنفية ما كانت تُطلب من غير الله فيما لايقدر عليه إلّا الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3و4].

---

١. كشف الارتياب: ٢٠٨.

٢. الشعراء: ٨٠.

٣. البقرة: ٢٥٤.

٤. كشف الارتياب: ٢٠٨.

ففي هذه الآية الشريفة نُفيت الشفاعة، فقال تعالىٰ: «لا شفاعة»، واستنتج الشيخ من ذلك عدم وجود مثل هذه الشفاعة في الآخرة؛ ولكونها ممّا لايقدر عليها إلّا الله فقد نفىٰ طلبها من غيره تعالىٰ.

ثم أضاف: والمثبتة هي التي تُطلب من الله، والشافع مكرَّم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي قوله وعمله بعد الإذن كما: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[١و٢].

فاتّضح من هذه المقاطع المتقدّمة أنّ لها مضموناً واحداً هو: أنّ الشفاعة وما لايتأتّىٰ إلّا من الله لايصحّ طلبها من غيره، فذاك شرك. وعلىٰ هذا الأساس وضعوا معياراً للشرك، وبطلان التوسّل والشفاعة.

والسؤال المطروح: لماذا يعتبر هذا الطلب شركاً؟

هذا ما لم يبيّنوه؛ لذا سنسعىٰ إلىٰ مساعدتهم في العثور علىٰ توجيهٍ لهذا الكلام ولهذه الادّعاءات، فنوجّه هذا الكلام بالشكل التالي: إذا طلبنا ما لايقدر عليه إلّا الله من غيره فيلزم من ذلك الاعتقاد بأُلوهيّة ذلك الغير؛ لأنّنا اعتبرناه قادراً علىٰ ما لايقدر عليه. وفي الحقيقة لو لم نكن قد اعتبرناه قادراً لما طلبنا منه شيئاً، ولمّا اعتبرناه قادراً، فإذا آمنّا أنّ هذا الفعل لايختصّ بالله وحده، فالله قادر وزيد قادر عليه أيضاً، وبهذا نكون قد وقعنا في حبال الشرك!

هذا غاية ما يمكن توجيه كلامهم به؛ ثم إنّهم يذهبون إلىٰ أنّ طلب

---

١. البقرة: ٢٥٥.

٢. كشف الارتياب: ٢٠٨.

الشفاعة موجب للشرك في العبادة، لذا فالدعاء عبادة كما يرون؛ لكن الشفاعة حسبما بيّنا موجبة للشرك الأفعالي، ومخالفة للتوحيد الأفعالي؛ لأنّنا جعلنا لله شريكاً في الفعل.

وبعد أن اتّضح أصل الاستدلال نستعرض الردود الواردة عليه:

الردّ الأول: الشفيع ليس مستقلّاً

لنسأل: ما هو مرادكم بقولكم: طلب الفعل ممّن لايقدر عليه إلّا الله شرك؟ فإذا كان المراد أنّنا نقول لهذا الغير: إفعل لنا كذا لكن بدون أن تستعين بالله أو أن تطلب منه أن يمنحك القوة اللازمة، كما في موضوع الشفاعة هنا نطلب من النبي ﷺ أن يشفع لنا من دون أخذ إذن الله بنظر الاعتبار، أو حتّىٰ لو لم يأذن الله في ذلك أو نهىٰ عنه، أو نطلب منه ﷺ أن يفعل لنا عملاً دنيوياً أو أُخروياً من دون أن يستمدّ قدرته من الباري عزّ وجلّ... فلا شكّ أنّ هذا شرك، ولايقتصر على النبي ﷺ ولاينحصر بموضوع الشفاعة أيضاً، بل هذا النوع من الطلب شرك في جميع الأفعال، ولدىٰ جميع الأشخاص.

وهذا هو معنىٰ التوحيد الأفعالي، كما أنّ هذا الأمر صادق في أفعالنا أيضاً، فلو تصوّرت أنّني قادر علىٰ رفع شيءٍ ما بلا حاجةٍ إلىٰ استمداد القدرة من الله، أكون أذن قد أشركت؛ ولهذا السبب نقول: *«بحول الله وقوّته أقوم وأقعد»* فأنا أقوم وأقعد لكن بحولٍ من الله وقوته.

ولكن أيّ مسلمٍ يتوسّل بالنبي ﷺ أو بأحدٍ من ذرّيته الطاهرة بهذه

الصورة؟ أنعتقد بذلك حينما نتوسّل بالنبي أو الإمام أو نستشفع به؟

فإذا كنّا نؤمن بأنّ النبي ﷺ قادر على الشفاعة من دون أن يأذن الله له، ويهبه القدرة علىٰ ذلك، أو أنّه قادر علىٰ شفاء مريضنا كذلك، كأبي الفضل العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام قادر علىٰ شفاء الناس بمعزلٍ عن قدرة الله جلّا وعلا، وبدون أن يدعو الله في ذلك، فهذا كلّه شرك لا محالة.

لكن لو سألت فرداً من عامة الناس: كيف يشافي أبو الفضل العباس عليه السلام ولدك؟ لأجابك قطعاً: يطلب من الله الشفاء له، والله يشافيه. وربّما يقول لك: الله وهبه هذه القدرة.

الردّ الثاني: تقسيم سقيم

والقضية الأخرىٰ المهمة هي التركيز على العبارة: «لايقدر عليه إلّا الله» وهي توحي إلىٰ أنّ هذا تقسيم للفعل؛ لأنّ الفعل في هذه الجملة ينقسم إلىٰ قسمين: فعل لايقدر عليه إلاّ الله، وفعل يقدر عليه سواه أيضاً.

فما المسوّغ لهذا التقسيم؟

فهل المراد من «لايقدر» هو «لايقدر عليه بالذات»؟

فإذا كان هذا هو المراد فيجب القول: إنّ هذا التقسيم غير صائب قطّ؛ لاستواء جميع الأفعال في ذلك، ولا أحد يقدر علىٰ أيّ عملٍ بالذات؛ لأنّنا نؤمن أنّه «لامؤثّر في الوجود إلّا الله، ولا مدبّر للأمور إلّا الله، ولا خالق لشيء إلّا الله»، فإن أخذنا قيد «بالذات» بالحسبان فلا

شيء في العالم قادر بالذات؛ فوجودي ووجودك وجود الآخرين منه تعالى، وجميع الموجودات ظلّ له؛ من يقف تحت الشمس يكون له ظلّ، فإن لم يقف فلا ظلّ له أساساً، ولو لم يوجد الجدار لما وجد ظلّه أيضاً.

وأمّا إن كان المراد من «لايقدر» أنّه لايقدر عليه إلّا الله؛ فهو فعله، لكنّه وهب هذه القدرة للبشر أيضاً، فخلقنا وجعل لنا أجهزةً متشابكةً من الأعصاب والمخّ والروح، ومنح تلك الروح القدرة علىٰ إصدار الأوامر، فتستجيب لها الأعصاب والمخّ، عندها يمدّ الإنسان يده ويحرّكها إلى الشيء ليأخذه، إلّا أنّ جميع ذلك من الله تعالىٰ.

فإذا كان مرادهم ذلك نتساءل حينئذٍ: لمّا أعطىٰ الله الإنسان القدرة، فصار قادراً علىٰ أداء الفعل، فلِمَ يكون طلب ذلك الفعل منه شركاً؟ وإن غدا هذا الطلب شركاً فجميع طلبات بعضنا من البعض شرك إذن!

فعلىٰ سبيل المثال يستطيع فلان بما منحه الله من قدرة وسلامة بدنية أن يحمل هذا البساط لوحده، أمّا أنا فلا طاقة لي علىٰ حمله، فأطلب منه حمله إلىٰ مكانٍ آخر، فهل هذا شرك؟ وهل ثمة من يعدّه شركاً؟!

ثم لو كنّا موجودين في زمن النبي عيسىٰ عليه السلام وقلنا له: ياروح الله، أحيي هذا الميت! فإن ذهبنا إلىٰ أنّ المسيح عليه السلام فاعل مستقلّ وقادر بالذات علىٰ إحياء الموتىٰ فهذا شرك، أمّا لو طلبنا منه ذلك قائلين: ياروح الله، كما أنّ الله تعالىٰ أعطاك إذناً ومنحك قدرةً علىٰ إحياء الموتىٰ فقال: ﴿وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى

بِإِذْنِي﴾[١] فنطلب منك أن تحيي ميتنا، فهذا ليس شركاً ألبتة.

وقد كان الناس في العصور الخالية يطلبون المعجزات من الأنبياء عليهم السلام، فيسألونهم شفاء أطفالهم، أو مضاعفة أرزاقهم، وأشياء أخرىٰ، ولو كان معنىٰ هذا الطلب القيام بما يطلبون علىٰ نحو الاستقلال فهو شرك قطعاً، لكن من المقطوع به أنّ طلبهم ليس علىٰ هذا النحو.

إذن، فخلاصة الجواب: إن طلبنا من غير الله فعلاً باعتباره فاعلاً مستقلّاً وغنياً عن الله فعملنا محكوم بالشرك، ولا يقتصر على الشفاعة فحسب، بل يصدق علىٰ كلّ فعل، وإن طلبنا منه فعلاً باعتبار أدائه له بحول الله وبإذنٍ منه لا باعتبار استغنائه عن الله تعالىٰ، فليس ذلك بشركٍ، وهذا هو حال الشفاعة أيضاً، فلا شرك في البين.

والطريف أنّ هذا البعض المخالف يعترف بشفاعة النبي صلى الله عليه وآله ويقرّها؛ إذن النبي صلى الله عليه وآله قادر على الشفاعة لكن بإذن الله لا علىٰ نحو الاستقلال، فما لم يأذن له الله ليس له القدرة عليها، ولمّا كان النبي صلى الله عليه وآله قادراً على الشفاعة؛ لذا فهم يقولون: النبي صلى الله عليه وآله شافع ومُشفَّع، ونحن نسأله تعالىٰ أن يجعل النبي الكريم شفيعاً لنا. وإذ ثبت أنّ النبي صلى الله عليه وآله قادر على الشفاعة بإذن الله وقدرته، فنطلب منه ونقول: «يانبي الله، إشفع لنا» من دون مشكلة، وهذا نظير قولنا للنبي عيسىٰ عليه السلام: «ياروح الله، أحيي ميتنا» بعد أن ثبت أنّه قادر بإذن الله وقدرته علىٰ إحياء

---

١. المائدة: ١١٠.

الموتىٰ؛ وكلّ هذا ليس من الشرك شيئاً.

سؤال مطروح

نظراً إلى التوحيد الأفعالي، ألا يوجد إشكال في قولنا: إنّ النبي ﷺ قادر على القيام بهذا العمل أو فعل هذه المعجزة؟

والجواب: أنّ الفعل الذي يقوم به الله تعالىٰ عبر وسائط، أي يمنح قدرته إلى الآخرين، يمكن نسبته إلى الله وإلى تلك الوسائط في نفس الوقت. فهو تعالىٰ يقول في محكم كتابه الكريم حول إحياء الموتىٰ: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[1]، كما وهناك آيات كثيرة تنسب الإحياء والإماتة إلى الله فقط، وفي الوقت ذاته نسب عدد منها الإحياء إلى النبي عيسىٰ عليه السلام.

وكذا الإماتة فتارةً ينسبها تعالىٰ إلىٰ نفسه فيقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[2] وتارةً ينسبها إلى الملائكة فيقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[3] و﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[4] و﴿يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾[5].

وعلىٰ أيّة حال، لا إشكال في النسبة إلىٰ تلك الوسائط؛ فعلىٰ سبيل المثال: عندما يمسك الكاتب القلم بيده ويحرّر موضوعاً ما، فتارة يكتب ما كتب من عند نفسه، وتارةً يكتبه تنفيذاً لأوامر صدرت

---

١. يونس: ٥٦.

٢. الزمر: ٤٢.

٣. النحل: ٢٨ و٣٢.

٤. الأنعام: ٦١.

٥. السجدة: ١١.

من رئيسه، فإذا أمره الرئيس بالكتابة وقال: «اكتب هذه الرسالة» فبوسعنا هنا نسبة كتابة الرسالة إلى الرئيس فنقول: الرئيس كتب الرسالة، مع أنّه لم يكتبها بيده؛ لكن بالنظر إلىٰ تسبّبه بكتابتها يُنسب الفعل إليه؛ فهو فاعل يالتسبيب، وبوسعنا نسبة الكتابة إلى الشخص الكاتب أيضاً فنقول: هذا الشخص كتب الرسالة، وبوسعنا ثالثةً نسبتها إلىٰ القلم فنقول: كتابة هذا القلم جيدة، وكذا لنا الحقّ في نسبتها إلىٰ اليد أيضاً... وهكذا.

فنحن نسبنا الكتابة إلىٰ كلّ ما له دخل فيها بنحوٍ من الأنحاء، ويمكن أن ننسبها إليها مجتمعة أو كلّاً علىٰ حدة، وعلىٰ هذا المنوال يمكن نسبة الفعل إلى السبب الأول، أو السبب الأخير، أو الأسباب الواقعة بينهما في جميع الموارد.

أجوبة الشيخ محمد بن عبدالوهاب

يبدو أنّ الشيخ محمد بن عبدالوهاب التفت إلىٰ هذه الملاحظة؛ فحاول الإجابة عنها في كتابه «كشف الشبهات». فبعد أن قال: يجب طلب الشفاعة من الله، أضاف: فإن قال: النبي ﷺ أُعطي الشفاعة، وأنا أطلب منه ممّا أعطاه الله، فالجواب: أنّ الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[1و2].

---

١. الجن: ١٨.

٢. كشف الشبهات: ١٥.

وهذه ليست إجابة عن الإشكال بصورة صحيحة، بل هو نوع من الجدل.

وقد استدلّوا بهذه الآية في عدّة مواضع من كلامهم، لكن محصّل استدلالهم علىٰ ما قرأنا من عبارة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في رسالةٍ له: لا يجب طلب ما لا يقدر عليه إلّا الله من غيره، وإلّا كان شركاً.

والصغرىٰ في هذا القياس علىٰ ما بيّنا سابقاً هي أنّ الشفاعة كلّها لله، فالقدرة على الشفاعة والإذن بالشفاعة والأمر بالشفاعة بيده وحده، أمّا الكبرىٰ فهي أنّ طلب ما لا يقدر عليه إلّا الله (الشفاعة) من غير الله شرك.

هذا هو استدلالهم، ويرد عليه أنّه حينما أذن الله سبحانه لنبيّه بالشفاعة، ومنحه القدرة عليها، أصبح الاستشفاع به طلباً لفعل أُعطي النبي ﷺ القدرة عليه من قبل الله سبحانه، فليس هذا شركاً. وبدل أن يجيب الشيخ عن هذا الإشكال قال: «إنّ الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا»!!

مصادرة المطلوب

وأمّا الجواب الآخر الذي ذكره الشيخ لدفع الإشكال المتقدّم فقال: وأيضاً فإنّ الشفاعة أُعطيها غير النبي ﷺ، فصحّ أنّ الملائكة يشفعون، والأولياء يشفعون. أنقول: إنّ الله أعطاهم الشفاعة واطلبها منهم؟ فإن قلتَ هذا رجعت إلىٰ عبادة الصالحين التي ذكرها الله في

كتابه: أنّها الشرك الذي لايغفره، وإن قلت: لا، بطل قولك: أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلب منه ممّا أعطاه الله[١].

وهذا النحو من الاستدلال يُدعىٰ بالمصادرة للمطلوب، فأساس البحث هو: هل أنّ طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله أو الأولياء عليهم السلام أو الملائكة شرك أم لا؟

وقد اعتبره في جوابه شركاً بلاشكّ، فقال: «فإن قلت هذا رجعت إلىٰ عبادة الصالحين التي ذكرها الله في كتابه: أنّها الشرك الذي لايغفره» في حين أنّ مدار البحث هو هل أنّ طلب الشفاعة عبادة أم لا؟ فجعل ذلك دليلاً علىٰ مدّعاه؛ منطلقاً من أنّ طلب الشفاعة عبادة؛ لذا فهو شرك، بينما لانرىٰ نحن أنّ طلب الشفاعة عبادة، إذن دليله هو عين مدّعاه.

وأمّا جوابنا فهو أنّه ليس بشركٍ، فكما أعطىٰ الله الشفاعة لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله أعطاها لعباده الصالحين؛ لذا يمكن طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وآله ومن الصالحين أيضاً، فقوله: «رجعت إلىٰ عبادة الصالحين...» أول الكلام؛ لانوافق عليه، لأنّه مصادرة للمطلوب، وجعل المدّعىٰ دليلاً.

وهنا نتساءل: في أيّ آيةٍ من القرآن ورد أنّ طلب الشفاعة من الصالحين عبادة لهم؟

---

١. كشف الشبهات: ١٥.

وأيّ المفسّرين تفوّه بذلك لينسبه إلى القرآن ويقول: «ذكر الله في كتابه: أنّه الشرك الذي لايغفره».

نعم، عبادة غير الله شرك من وجهة نظر القرآن الكريم، لكن طلب الشفاعة ليس عبادة أبداً، بل هو عبارة عن طلب حاجة ودعاء؛ يعني: يقول: يارسول الله ادعُ لنا الله ليغفر ذنوبنا، فهل هذا عبادة؟ إنّ للعبادة خصوصيات غير متوفّرة في طلب الشفاعة.

وربّما يقال: إنّ «اللات» وهي أحد الأصنام التي عبدها المشركون قبل الإسلام إنّما هو اسم لأحد عباد الله الصالحين، حيث صنع له الناس تمثالاً بهذا الاسم وجعلوا يعبدونه؛ لكنّهم في الحقيقة كانوا يعبدون ذلك الصنم المسمّىٰ بهذا الاسم، لا العبد الصالح.

وعلىٰ كلّ حال، فكون طلب الشفاعة عبادةً للشفيع أول الكلام، لايحظىٰ بالقبول بتاتاً.

تهافت في الاستدلال

ثمة إشكال آخر يواجه هذا الاستدلال؛ إذ إنّهم يقولون من جهة: طلب ما لايقدر عليه إلّا الله من غيره أو ما لايمكن وجوده إلّا من عنده شرك، ومن جهةٍ أخرىٰ يعترفون ويصرّحون بأنّ النبي ﷺ والأولياء عليهم السلام والملائكة بل حتّىٰ الأطفال يشفعون يوم القيامة، فيتّضح أنّ الشفاعة مقدورة، لكنّها مقدورة ومشروطة بالإذن.

يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب في هذا المجال: فإن قال: أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها؟ فقل: لا أنكرها ولا أتبرّأ منها، بل

هو ﷺ الشافع المشفَّع، وأرجو شفاعته[١].

فهذا إقرار بقدرة النبي ﷺ على الشفاعة، ثم يقول في بحث طلب الحوائج: «طلب ما يقدر عليه الغير ليس بشركٍ». وعندما يضمّ هذا الكلام إلى الكلام السابق نستنتج ما يلي:

أولاً: أنّ النبي ﷺ قادر على الشفاعة باعترافهم.

ثانياً: طلب الأمر المقدور من غير الله ليس شركاً باعترافهم أيضاً، وبالتالي فإنّ طلب الشفاعة من النبي ﷺ ليس شركاً.

وفي الحقيقة هناك تهافت في كلامهم، فمن جهة يقولون: طلب الشفاعة شرك لعدم قدرة أحد عليها سوى الله سبحانه، ومن جهة ثانية يقولون: الشفاعة مقدورة للنبي ﷺ، وطلب المقدور من غير الله ليس شركاً. والنتيجة طلب الشفاعة ليس شركاً.

فإن كان مرادهم أنّ الشفاعة غير مقدورة للنبي ﷺ بالذات، فالنبي بنفسه غير قادر عليها، فسبق أن قلنا: إنّ هذا الأمر غير مقتصر على الشفاعة، فلا قدرة لفاعلٍ علىٰ أيّ فعلٍ بالذات، ووجود كلّ إنسانٍ من الله وقدرته منه أيضاً، فلا قدرة لأحدٍ بالذات مطلقاً.

وبقطع النظر عن إرادة الله وإذنه، لم يكن النبي عيسىٰ عليه السلام قادراً علىٰ إحياء الموتىٰ، ولا النبي محمد ﷺ قادر على القيام بالمعجزات؛ وكذا نحن في جميع أفعالنا، فلسنا بقادرين لولا إذن الله وقدرته.

---

١. كشف الشبهات: ١٥.

وإن كان مرادهم أنّ الشفاعة مقدورة للنبي ﷺ كما صرّحوا بذلك أنفسهم، وطلب المقدور ليس من الشرك بشيء، نستنتج أنّ طلب الشفاعة من النبي ﷺ ليس شركاً.

التوجيه الثاني: التدخّل في الشؤون الإلهية

ومن الاحتمالات الأخرىٰ التي دعت البعض إلىٰ اعتبار طالب الشفاعة المسلم مشركاً هي أن يقولوا: الشفاعة حقّ الله، فطلبها من غيره تجاوز علىٰ حدوده وسيادته. وبعبارة أخرىٰ: بما أنّ الشفاعة من الشؤون الإلهية فإنّ طلبها من غير الله شرك!

والسؤال المتبادر إلى الأذهان هو: لماذا يعتبر طلب الشيء الذي يمثّل حقّ الله من غيره شركاً؟ فهو شرك في أيّ شيء؟ أهو شرك في الأفعال أم في العبادة؟

إنّ الطلب ليس عبادة، غاية ما يمكن قوله هنا: إنّه لغو؛ فمثلاً نطلب الفعل الذي هو شأن زيد من عمرو، وأقصىٰ ما يمكن قوله عن ذلك: إنّه لغو، وليس شركاً.

بل نستطيع القول: لايعدّ هذا العمل لغواً فيما يتعلّق بموضوع الشفاعة؛ لأنّه ـ كما قلنا سابقاً ـ ليس هناك مسلم يطلب الشفاعة من النبي ﷺ أو الأولياء عليهم السلام وهو يؤمن بأنّه يشفع له بدون إذنٍ من الله تعالىٰ.

أضف إلىٰ ذلك، بعد أن أُعطي حقّ الشفاعة إلى النبي ﷺ أو الولي أو أحد الصلحاء أو الملائكة، ما الإشكال في أن نطلب منه أن يعطينا

ممّا أعطاه الله؟ أين الشرك في هذا الأمر؟

فنحن نطلب من النبي ﷺ أن يشفع لنا بالحقّ الذي أعطاه الله إيّاه في الشفاعة للمذنبين، وله الحقّ في القبول أو الرفض، فهو ليس مرغماً في الشفاعة للجميع؛ إلّا أنّ شفاعته تأتي وفق حسابات وليست اعتباطية؛ أي لاينال شفاعته إلّا من توفّرت فيه شروط خاصّة بعد أن يأذن الله لحصول هؤلاء الأشخاص على الشفاعة.

وبالنظر إلىٰ ذلك، إذا طلبنا من الرسول وقلنا: «يارسول الله، إجعلنا من جملة هؤلاء المشفَّعين» لماذا يعتبر هذا الطلب شركاً كما يزعمون؟!

كما واستدلّوا بدليل آخر ذُكر في كتاب كشف الشبهات وفي كُتبٍ أخرىٰ، ولابدّ لنا من مناقشته، وهو قوله: فإن قال: أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها؟ فقل: لا أنكرها ولا أتبرّأ منها، بل هو ﷺ الشافع المشفَّع، وأرجو شفاعته. ثم أضاف قائلاً: لكن الشفاعة لله كلّها، قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾[1]، ولاتكون إلّا من بعد إذن الله، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[2]، ولايشفع في أحدٍ إلّا بعد أن يأذنه الله فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[3]، وهو سبحانه لايرضىٰ إلّا التوحيد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن

---

١. الزمر: ٤٤.

٢. البقرة: ٢٥٥.

٣. الأنبياء: ٢٨.

يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[١]و[٢].

اتّحاد الدليل مع المدّعىٰ

كلّ ما ذكر صحيح، والآيات كثيرة في هذا المجال، ونحن نوافق علىٰ أنّ الله جلّ وعلا لايرضىٰ بالشفاعة للمشرك، فهو القائل: ﴿إِنَّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٣].

لكن الشيخ محمد بن عبدالوهاب واصل حديثه مستنتجاً ممّا ذكره: فإذا كانت الشفاعة كلّها لله، ولاتكون إلّا من بعد إذنه، ولايشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحدٍ حتّىٰ يأذن الله فيه، ولايأذن الله تعالىٰ إلّا لأهل التوحيد، تبيّن لك أنّ الشفاعة كلّها لله، أطلبها منه[٤].

إنّ آخر نتيجة توصّل لها الشيخ هي عبارة عن المقدّمة التي ذكرها في بداية كلامه من أنّ الشفاعة كلّها لله، ثم قال في نهاية كلامه: تبيّن لك أنّ الشفاعة كلّها لله! فالنتيجة إذاً هي المقدّمة!

ثم إنّ هذه النتيجة المبنية علىٰ وجوب طلب الشفاعة من الله وحده غير منسجمة مع سائر المقدّمات الأخرىٰ؛ لأنّه يقول أيضاً: «أذن الله لغيره في الشفاعة» فبعد أن أذن لغيره ما المانع في طلبها من ذلك الغير؟ وعليه فإنّ المقدّمات التي ذكرها لاتنتج قوله: لايجب طلب الشفاعة من غير الله كما هو واضح.

---

١. آل عمران: ٨٥.

٢. كشف الشبهات: ١٥.

٣. النساء: ١١٦.

٤. كشف الشبهات: ١٥.

التوجيه الثالث: طلب الشفاعة مناقض للتوحيد

ومن الاحتمالات الأخرىٰ التي يريد المستدّل بكلامه: «وهو سبحانه لايرضىٰ إلّا التوحيد» أن يقول: إنّه سبحانه لايرضىٰ إلّا بالشفاعة من الموحّد، ومن طلب الشفاعة ليس بموحّد، فبمجرّد طلب الشفاعة من غير الله خرج عن التوحيد.

والشاهد علىٰ ذلك ما نقلناه سابقاً من قوله في الرسالة الأولىٰ من الرسائل الهدية السنيّة: فالمتعيّن علىٰ كلّ مسلمٍ صرف همّته إلىٰ ربّه بالإقبال إليه، والاتّكال عليه، والقيام بحقّ العبودية له، فإذا مات موحّداً استشفع الله فيه نبيّه، بخلاف من أهمل ذلك وتركه وارتكب ضدّه...[1].

ثم فسّر معنىٰ ارتكاب الضدّ قائلاً: من الإقبال إلىٰ غير الله بالتوكّل عليه، ورجائه فيما لايمكن وجوده إلّا من عند الله، والالتجاء إلىٰ ذلك الغير... فإنّ هذا بعينه فعل المشركين واعتقادهم، ولانشأت فتنة في الوجود إلّا بهذا الاعتقاد[2].

فالشيخ يعتبر طلب الشفاعة مناقض للتوحيد، ومساوق للشرك، ببيان: أنّه لمّا كانت الشفاعة بيد الله وحده، والله لايشفع إلّا للموحّد، فإنّ من طلب الشفاعة من غير الله ليس موحّداً، بل مشركاً، وغير مشمول بالشفاعة.

---

١. كشف الارتياب: ٢٠٨.

٢. المصدر السابق.

مصادرة سافرة

واضح أنّ كلامه مصادرة سافرة، أي جعل الدليل عين المدّعىٰ، والسؤال المتبادر هنا هو: لِمَ يكون هذا الشخص مشركاً؟ فأساس البحث والكلام هو: هل أنّ من طلب الشفاعة مشرك أم لا؟ في حين أنّ الشيخ فرض منذ البداية شركه، وجعل مدّعاه دليلاً!

فإنّ من خاطب النبي ﷺ قائلاً: يارسول الله إشفع لي، فهو يعني يارسول الله أدعُ لي أو استغفر لي؛ ما الضير في ذلك؟ فقد كان الناس في عصر النبي ﷺ يذهبون إلى النبي ﷺ طلباً للاستغفار منه، وقد ورد ذلك صريحاً في القرآن الكريم.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾[١].

لم تستخفّ هذه الآية الكريمة بطلب الاستغفار من الرسول ﷺ، بل حثّت عليه، وقال أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[٢]، فأجابهم الأب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾[٣].

إنّ معنىٰ طلب الشفاعة لايعدو عن كونه طلباً من النبي ﷺ أو الائمة أو الأولياء والصلحاء للدعاء والاستغفار لنا يوم القيامة، أو نطلب من الملائكة أن تستغفر لنا؛ لأنّ الملائكة تستغفر للمؤمنين،

---

١. النساء: ٦٤.

٢. يوسف: ٩٧.

٣. يوسف: ٩٨.

فهل هذا إقبال إلىٰ غير الله وتوكّل علىٰ غيره؟

أيّ إنسان في الوجود يتوكّل على النبي ﷺ بمعزلٍ عن الله جلّ وعلا؟ وهل يعدّ طلب الشفاعة توكّلاً على النبي وإعراض عن الربّ؟

لاشك أنّ المشركين كانوا كذلك، إذ لم تكن لهم علاقة تربطهم بالله، ولايرون سوىٰ الأصنام، وكانوا يقولون: نحن لانستطيع أن نعبد الله ونتقرّب إليه؛ وعليه لايهمّنا شيء سوىٰ الأصنام.

وأمّا من يطلب حاجته من النبي ﷺ أو من أولياء الله عليهم السلام، أو يستشفع بهم، لايعرض عن الله ويقبل علىٰ غيره، بل يطلب من النبي أن يدعو له؛ فهو مقبل على الله، لكنّه يقول: يارسول الله، أدعُ لي.

هؤلاء يقولون: لا إشكال في طلب الدعاء من النبي ﷺ ومن المؤمن في حياته، لكنّنا نقول: طلب الشفاعة كطلب الدعاء يحصل بعد مماته أيضاً، فهل أنّ موت النبي ﷺ يوجب صيرورة طلب الشفاعة شركاً؟ إنّ هذا ليس إقبالاً علىٰ غير الله، ولا يتنافىٰ مع التوحيد أبداً.

التوجيه الرابع: لغوية طلب الشفاعة

ربّما يقال في توجيه الدليل الذي تشبّثوا به: لمّا كانت الشفاعة حقّاً إلهياً مرتبطاً به تعالىٰ، ولاتحصل الشفاعة إلّا بإذنه ولمن ارتضىٰ من خلقه، لذا فإنّ طلبها من غير الله لغو! وهو نظير ما لو كنت تشرف علىٰ عملٍ ما، فجاء شخص وطلب من غيرك القيام به، فهذا لغو؛ لأنّه طلب ما هو حقّ لك من غيرك.

والجواب علىٰ هذا التوجيه:

أولاً: علىٰ فرض كونه لغواً؛ فهو ليس بشركٍ، فثمة بون شاسع بين اللغوية والشرك.

ثانياً: بل هو ليس لغواً أيضاً؛ لأنّنا لم نطلب الشفاعة من شخصٍ أجنبي، بل طلبناها ممّن هو أهلها.

فعلىٰ سبيل المثال: نستطيع أن نطلب من رئيس الدائرة القيام بعملنا، ونستطيع أيضاً أن نطلب ذلك من نائبه؛ إذ هو مفوَّض من قبل الرئيس بإجراء ذلك.

إنّ هذه التوجيهات الأربع لوحظت في كلمات القوم، ولو أنّ بعضها غير صريح، بل وردت بعبارات أخرىٰ.

التوجيه الخامس: طلب الشفاعة إيمان باستقلال الشفيع

والتوجيه الآخر المستفاد من كلمات القوم، والذي لايبعد أن يكون منشأ لجميع كلامهم، وهو أنّهم تصوّروا أنّ معنىٰ طلب المسلمين الشفاعة من النبي ﷺ أو من أحد أولياء الله عليهم السلام شفاعتهم من دون إذن الله تعالىٰ، وهو إمّا أن يكون تصوّرهم الواقعي سلبياً تجاه المسلمين علىٰ اختلاف مذاهبهم، وإمّا أنّهم أرادوا نسبته إليهم عمداً.

وطلب الشفاعة لايختصّ بفرقة دون فرقة، بل كانت هذه القضية موجودة لدىٰ كافّة الفرق الإسلامية، وهناك شواهد تاريخية وروايات تؤيّد ذلك. ورغم أنّه في عصرنا الراهن قد تضاءل الاستشفاع بفعل الإعلام السلبي تجاهه، إلّا أنّ معظم المسلمين يطلبون الشفاعة من

النبي ﷺ من دون انقطاع.

لقد تصوّر هؤلاء أنّ طلب الشفاعة يعني تشفع النبي أو أولياء الله عليهم السلام بدون إذنٍ من الله تعالىٰ، ولو صحّت هذه النسبة لصحّ كلامهم؛ لأنّنا عندما نطلب من النبي أن يشفع لنا من دون إذن الله، فهذا يعني أنّنا طلبنا منه ما لا يقدر عليه، وهو لا يقدر على الشفاعة بدون إذنٍ منه تعالىٰ، إذ إنّ هذا غير مقدورٍ له من جهة، وتصرّف في حقّ الله من جهة أخرىٰ.

نعود إلىٰ مناقشة عبارة الشيخ محمد بن عبدالوهاب التي ذكرها في رسالة «أربع القواعد» والدالّة علىٰ حملهم لهذا التصوّر، فهو يقسّم الشفاعة ويقول: «الشفاعة شفاعتان: منفية ومثبتة، فالمنفية: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلّا الله؛ لقوله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1]»[2].

والجواب: تقول هذه الآية: لا شفاعة يوم القيامة، لكن هل أنّ باب الشفاعة موصد تماماً ولا وجود للشفاعة أصلاً؟ ليس هذا المراد قطعاً؛ لأنّه تعالىٰ قال في الآية اللاحقة: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[3].

---

١. البقرة: ٢٥٤.

٢. كشف الارتياب: ٢٠٨.

٣. البقرة: ٢٥٥.

إنّ الشفاعة بإذن الله هي ممّا أكّد القرآن الكريم علىٰ وقوعها، بل هناك آيات أخرىٰ دالّة علىٰ عدم انتفاء الشفاعة كلّياً، منها قوله تعالىٰ:

﴿لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[١].

والمسلمون جميعاً يعترفون بوجود شفاعةٍ بإذن الله حتّىٰ أولئك البعض المخالفين؛ وعندما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ فكلامه عام؛ لأنّه استخدم «لا» النافية، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم كما هو ثابت؛ فحسب الظاهر نفى الشفاعة برمتها نفياً تامّاً، لكن بما أنّه قال في الآية التالية: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، يتّضح أنّ الشفاعة المنفية هي الشفاعة المفتقرة للإذن، وبعد أن تبيّن أنّ الشفاعة المنفية هي الشفاعة بلا إذن، علم أنّ الشفاعة قسمان: شفاعة بإذن وأخرىٰ بدون إذن، فالمنفية المفتقرة إلىٰ إذن، والمثبتة المتضمّنة للإذن.

ثم قال الشيخ في القسم الثاني من الشفاعة: والمثبتة هي التي تُطلب من الله، والشافع: المكرَّم بالشفاعة، والمشفوع له: من رضي قوله وعمله بعد الإذن.

ومعنىٰ هذا الكلام: أنّ القرآن الكريم رفض جميع أنواع الشفاعة من غير الله تعالىٰ، وهذه الشفاعة قد تمّت بغير إذنٍ منه تبارك وتعالىٰ. إنّ هذه العبارة صريحة تقريباً في أنّهم تصوّروا أنّ الشفاعة الواقعة من

---

١. الأنبياء: ٢٨.

الشفعاء شفاعة من دون إذن، لا أنّها تطلب إيماناً من المستشفع باستقلال الشفيع!

والعبارة الأخرىٰ هي ما ورد في الرسالة الأولىٰ من الرسائل الهدية السنيّة، فبعد أن قال: من الإقبال علىٰ غير الله بالتوكّل عليه ورجائه... فإنّ هذا بعينه فعل المشركين واعتقادهم... أضاف قائلاً: وطلبها من غير الله في هذه الدار زعم بعدم تعلّقها بالإذن من الله، والرضا عن المشفوع له، وقال الله تعالىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾[١و٢].

هذه العبارة صريحة بأنّ كلّ من طلب الشفاعة من غير الله يؤمن بأنّ الشفاعة غير مرتبطة بإذنٍ من الله تعالىٰ، وغير متوقّفة علىٰ رضا الله عن المشفوع له!

وبديهي أنّ للشفاعة شرطين: أحدهما: إذن الله سبحانه وتعالىٰ، والآخر: استحقاق الشخص المشفوع له. إنّ لازم طلب الشفاعة من غير الله في هذه الدنيا هو أنّنا لانعتبر إذن الله شرطاً، ولا الرضا عن المشفوع له كذلك، في حين أنّه تعالىٰ يقول: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾.

والعبارة الثالثة التي نستدلّ بها علىٰ أنّ القوم فهموا من طلب الشفاعة الاستقلال عن الله، ما نقل عن الصنعاني حيث قال: ومن

---

١. السجدة: ٤.

٢. كشف الارتياب: ٢٠٨.

اعتقد في حيٍّ أو ميتٍ أنّه يقرّب إلى الله أو يشفع عنده في حاجةٍ من حوائج الدنيا بمجرّد التشفّع به، فقد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لايحلّ، كما اعتقد المشركون في الأوثان، وصار حلال المال والدم[١].

فإن كان هذا هو مراد القوم، فيجب القول: لا أحد يستشفع بالنبي أو بأولياء الله إيماناً منه بالشفاعة من دون إذنٍ منه تعالىٰ، فقول: «إشفع لنا يارسول الله، إشفع لنا ياولي الله» لايعني أساساً شفاعة الرسول أو الولي من دون إذنٍ منه تعالىٰ، أو غفران الذنوب كذلك! وإن اعتقد شخص بذلك فنحن نقول بشركه أيضاً.

الدليل الثاني: طلب الشفاعة سبب شرك المشركين

يقول هؤلاء البعض: يجب أن نعرف حقيقة شرك المشركين في صدر الإسلام ممّا دعا النبي ﷺ إلىٰ قتالهم، فهل كان شركهم في الخالقية؟ أم في الرازقية؟ أم في تدبير الأمور؟ وهل أنّ من جعل عيسىٰ عليه السلام ربّه كان يؤمن بربوبيته وخالقيته؟

ثم قالوا: القرآن الكريم أجاب عن هذا السؤال، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٢].

إذن، لم يكن شركهم في الربوبية والخالقية والرازقية وتدبير الأمور... وما إلىٰ ذلك، بل كانوا يقولون: الأصنام شفعاؤنا، ولهذا

---

١. المصدر السابق: ٣٠٧.

٢. لقمان: ٢٥.

السبب ذهب النبي ﷺ إلىٰ نجاستهم، وحاربهم، وأحلّ أموالهم ودماءهم.

وتابع هؤلاء استدلالهم قائلين: ما الفرق بين من قال: الصنم شفيعي، ومن قال: النبي عيسىٰ عليه السلام أو النبي محمد ﷺ أو وليّ من أولياء الله شفيعي؟ كلاهما واحد، وبما أنّ الأول مشرك، فالثاني مشرك أيضاً![1]

ويقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب في هذا الصدد: فإنّ أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة علىٰ دين الرسل، يصدّون بها الناس؛ منها قولهم: نحن لانشرك بالله، بل نشهد أنّه لايخلق ولايرزق ولاينفع ولايضرّ إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً ﷺ لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، فضلاً عن عبدالقادر[2] أو غيره، ولكن أنا مذنب، والصالحون لهم جاه عند الله، وأطلب من الله بهم[3].

ثم يستدرك الشيخ قائلاً: فأجبه بما تقدّم، وهو أنّ الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرّون بما ذكرت، ومقرّون أنّ أوثانهم لاتدبّر شيئاً، وإنّما أرادوا منها الجاه والشفاعة، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضّحه[4].

---

١. وتفصيل هذا الموضوع في كتاب كشف الشبهات: ٦ وما بعده

٢. المراد منه: عبدالقادر الكيلاني، مؤسّس الفرقة القادرية، المتوفّىٰ عام ٥٦١هـ، والمدفون في بغداد.

٣. كشف الارتياب: ١٢.

٤. المصدر السابق.

وهو يقصد منها الآيات النازلة في المشركين، ومنها: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[1] و﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا﴾[2].

ثم تابع قائلاً: فإن قال: هؤلاء الآيات نزلت في من يعبد الأصنام، كيف تجعلون الصالحين أصناماً؟ فأجبه بما تقدّم، فإنّه إذا أقرّ أنّ الكفّار يشهدون بالربوبية كلّها لله، وأنّهم ما أرادوا ممّن قصدوا إلّا الشفاعة، ولكن إذا أراد أن يفرّق بين فعلهم وفعله بما ذكره، فاذكر له أنّ الكفّار منهم من يدعو الصالحين والأصنام، ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[3] ويدعون عيسىٰ بن مريم وأُمّه، وقد قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾[4][5].

وبعد ذلك ذكر عدداً من الآيات القرآنية وقال: فقل له: أعرفت أنّ الله كفّر من قصد الأصنام، وكفّر أيضاً من قصد الصالحين وقاتلهم رسول الله ﷺ؟ فإن قال: الكفّار يريدون منهم، وأنا أشهد أنّ الله هو النافع الضارّ المدبّر، لا أُريد إلّا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر

---

١. الزمر: ٣.

٢. يونس: ١٨.

٣. الإسراء: ٥٧.

٤. المائدة: ٧٥.

٥. كشف الشبهات: ١٣.

شيء، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم، فالجواب: أنّ هذا قول الكفّار سواء بسواء، فاقرأ عليه قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[١]، ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عند الله﴾[٢و٣].

وفيما يتعلّق بالاستدلال بهاتين الآيتين، ذكر المرحوم محسن الأمين أنّ هؤلاء كتبوا في رسالة إلى الشيخ المغربي ما يلي: فأخبرْ أنّ من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة، فقد عبدهم وأشرك بهم[٤].

وخلاصة استدلالهم: أنّ القرآن الكريم أوضح شرك المشركين في الآيتين المذكورتين، وأنّهم يقولون: ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا﴾[٥] و﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[٦].

وأنتم أيضاً تفعلون ذلك، فلم يكن شركهم في شيء آخر، ولهذا السبب حاربهم النبي ﷺ؛ وبما أنّكم تتوسّلون بالأنبياء والأولياء والصالحين، وتفعلون كما يفعلون، فأنتم مشركون أيضاً.

الردّ الأول: شرك المشركين متمثّل بعبادة الأصنام

لم يكن سبب شرك المشركين قولهم: ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا﴾، وإنّما لعبادتهم الأصنام، والآيتان اللّتان استدلّوا بهما تدلّان علىٰ ذلك

---

١. الزمر: ٣.

٢. يونس: ١٨.

٣. كشف الشبهات: ١٣.

٤. كشف الارتياب: ٢٠٧.

٥. يونس: ١٨.

٦. الزمر: ٣.

بصراحة، حيث قال في الآية الأولىٰ علىٰ لسان المشركين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

إذ كان المشركون يعبدون الأصنام ويسجدون لها، وكان لكلّ قومٍ منهم عبادته الخاصّة، وربّما صلاته الخاصّة، كما كانوا ينحرون لها الأضاحي، وهذا النحر من العبادة، ونحن أيضاً نذبح الذبائح في منىٰ في موسم الحج لكن طبقاً للسنّة التي ورثناها عن النبي إبراهيم عليه السلام.

وأولئك كانوا يتضرّعون للأصنام، ويظهرون التذلّل والخشوع لها، كما ويذكرون أسماءها أثناء الذبح، وفي الإسلام تجب التسمية، وهو قول: «بسم الله» عند الذبح؛ كما هي عند اليهود أيضاً يسنّ ذكر اسم الله بالتعبير الذي يعتقدونه، والقرآن الكريم يشير إلىٰ ذلك قائلاً: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[١].

فالمشركون يذكرون أسماء آلهتهم كاللات والعزّىٰ وغيرها على الذبائح حين الذبح، وشركهم هذا كان يتمثّل بأنّهم يفعلون لأصنامهم ما يفعل الموحّد في عبادته لله، لكن بشكل آخر، ولم يعتبروا مشركين لإيمانهم بالشفاعة.

وفي الآية الثانية ذكر أمران: الأول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ والآخر: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ وقد فصل بينهما بواو العاطفة الدالّة على التغاير. إذن الآية غير دالّة علىٰ نسبة الشرك إلى المشركين بفعل اتّخاذهم الأصنام شفعاء لهم.

---

١. الأنعام: ١٢١.

كما أنّ في كلتا الآيتين طرحت ـ بدايةً ـ مسألة عبادة غير الله، وأضحت موضعاً للتقريع، ثم نقل كلام المشركين بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، وواضح أنّ ما يوجب الشرك هو المقطع الأول من الآية، وأنّ عمل المشركين يعدّ شركاً في العبادة.

والمسلم لم يعبد الشفيع، ومع قطع النظر عن ارتباط هذا الشفيع بالله تعالىٰ فهو يعتقد أنّه لايملك لنفسه نفعاً ولاضرّاً، لكنّه يعدّه مخلوقاً كاملاً، وإنساناً سامٍ ومقرَّباً من الذات الإلهية المقدّسة، كأن يكون نبيّاً مرسلاً؛ ولذا لايعتبر هذا العمل شركاً، ولا صلة له أبداً بعمل المشركين، ولايمكن مقارنته بعملهم؛ لأنّهم يؤمنون بأنّ الشفيع ربّ وإله، بينما المسلم لايؤمن بذلك.

فالإنسان تارةً يسجد للصنم ويقول: هذا إلهي وربّي، أو يتّخذه وليّاً طبقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾[1] فيعبده، ويذبح له، ويذكر اسمه عليه أثناء الذبح، يصلّي ويحجّ له، بل ويقوم بمختلف الأعمال من أجله، ويقول: هذا الصنم شفيعي؛ فهذا الشخص مشرك قطعاً، وشركه من نوع الشرك في العبادة. وتارةً يؤمن الشخص أنّ النبي ﷺ إنسان ومخلوق من مخلوقات الله، لكنّه يقول فقط: بما أنّ الله تعالىٰ أعطاه الشفاعة فأنا أطلب منه أن يشفع لي، فهل ثمة مقارنة بين هذين الاثنين؟ وهل يستويان مثلاً؟

---

١. الزمر: ٣.

ولمّا أراد المخالفون في بحث الشرك في العبادة استعراض أصناف المشركين ـحسبما ينقل عنهم ـ لم يطرحوا قضية الشفاعة فيها؛ ممّا يدلّل علىٰ أنّهم حينما يعتزمون ذكر أنواع الشرك لايعدّون طلب الشفاعة أحد أقسامه.

ففي عبارة للإمام البكري وردت في الرسالة الثالثة من الرسائل الهدية السنيّة، يذكر فيها أنّه حينما يريد القرآن الكريم التحدّث عن عقيدة المشركين يثبت لهم فطرة معرفة الله، ويقول: أولئك يؤمنون أنّ الله هو الخالق والمالك والمدبّر، ومن الآيات القرآنية الواردة في هذا الصدد قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[1].

فيعقّب الإمام البكري علىٰ هذه الآية قائلاً: فإن قلت: إذا أقرّوا بذلك فكيف عبدوا الأصنام؟ قلت: كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرّب إليه، لكن بطرقٍ مختلفةٍ؛ ففرقة قالت: ليس لنا أهلية عبادة الله بلا واسطةٍ؛ لعظمته، فعبدناها لتقرّبنا إليه زلفىٰ، وفرقة قالت: الملائكة ذوو منزلةٍ عند الله، فاتّخذنا أصناماً علىٰ هيئتها لتقرّبنا إليه زلفىٰ، وفرقة قالت: جعلنا الأصنام قبلةً لنا في العبادة كما أنّ الكعبة قبلة في عبادته، وفرقة اعتقدت أنّ لكلّ ملك كذا شيطاناً موكلاً

---

١. يونس: ٣١.

بأمر الله، فمن عبد الصنم حقّ عبادته قضىٰ الشيطان حوائجه بأمر الله، وإلّا أصابه الشيطان بنكبةٍ بأمر الله[1].

وواضح أنّ جميع ما قاله الإمام البكري يتعلّق بعبادة الأصنام؛ فلم يكن كلام المشركين يدور حول شفاعة الأصنام فقط، بل كان أولئك يعبدون الأصنام، وشركهم نابع من ذلك؛ فلو كانوا يعبدون الله وحده، ويعتقدون أنّ الأصنام تشفع لهم لما صاروا مشركين. نعم، ذاك اعتقاد خاطئ ولغو سافر؛ لأنّ الصنم لايمتلك القدرة على الشفاعة، وليس مأذوناً فيها. لكن علىٰ كلّ حال، لو لم تكن الشفاعة مقرونة بعبادة الأصنام لما آلت إلى الشرك أبداً.

وفي عصرنا الراهن نجد من يعبد الأصنام، ويطبّق آداباً وتقاليد خاصّةً لعبادتها، أقلّها أن يقف أمامها بطريقة خاصة، ويستعمل حركات وإشارات مخصوصة لتعظيمها وتبجيلها. ففي الهند يلاحظ كثيراً أنّ من يخرج من الفندق مثلاً يقف أمام الصنم الموضوع هناك، وبما أنّه يفتقر إلى الفرصة الكافية للذهاب إلى المعبد تراه يتمتم هناك بكلمات، ويؤدّي بعض الحركات، وهو في الحقيقة يؤدّي طقوس العبادة للصنم، ثم يتّجه إلىٰ عمله.

الردّ الثاني: المشركون يشركون في الربوبية أيضاً

يبدو أنّ هذا البعض المخالف موقن بأنّ المشركين لايشركون في الربوبية والمدبّرية، فقصروا شركهم على الشرك في العبادة فقط، وذلك

---

١. كشف الارتياب: ٢١٣ ـ ٢١٤.

أنّهم حينما قالوا: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ ابتلوا بعبادة الأصنام، وآل بهم المآل إلى الشرك، بينما يعتبر منشأ شركهم في العبادة الشرك في الربوبية؛ أي لم يكونوا يعبدون الأصنام دون دليل، بل كان اعتقادهم متمثّل بقولهم: خلق الله العالم، ثم فوّض تدبيره إلى الملائكة والأرواح، لكن لو قلنا: إنّ الله يدبّر الأمور بواسطة الملائكة، فلم نقل شططاً ولم نشرك؛ إذ يقول الله تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾[1].

فالملائكة والقوى الفاعلة مأمورة من قِبَل الله تعالىٰ بتدبير أُمور العالم؛ والعالم أساساً عالم العلل والمعاليل، والأسباب والمسبّبات، غير أنّ جميع هذه العلل والعوامل والأسباب والمسبّبات مسخّرة لله، وتعمل بأمره ونفوذه: ﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾[2]، وهذه العقيدة ليست شركاً، بل عين التوحيد.

وخلافاً لعقيدتنا يؤمن المشركون أنّ الله تعالىٰ أوكل أمر رزق البشر إلىٰ أحد الأرواح أو الملائكة أو الكواكب ـ ككوكب «شعرىٰ» مثلاً ـ وفوّض تدبير أمر الزواج إلىٰ مَلَك آخر، وتدبير أُمور الأرض والزراعة ونمو النباتات إلىٰ روح أو ملك آخر، وتدبير أمور البحار إلىٰ غيره... وهكذا؛ فخلاصة القول: هم يعتقدون بوجود مدبّرين مستقلّين لأُمور العالم.

---

١. النازعات: ٥.

٢. الأعراف: ٥٤.

وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك بلفظ «أرباب» فقال تعالىٰ: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾[١]، والربّ هو من يقوم بأُمور التربية والتدبير. فكان المشركون يظنّون بوجود أرباب متعدّدة، والظاهر أنّهم كانوا يؤمنون بوجود ربّ ومدبّر لكلّ نوعٍ من الأنواع، ويقولون: ربّ نوع الإنسان مثلاً مَلَك من الملائكة، ولكلّ شيء ربّ في النوع، لكنّنا لانستطيع رؤية تلك الروح أو ذاك الملك أو الجنّ ولانصل إليه، لذا كانوا يصنعون لكلّ واحدٍ منهم تمثالاً يدلّ عليه.

وكانوا يعترفون أنّ تلك الأخشاب أو الأحجار لاترزق، لكنّهم يقولون: هناك ربّ للرزق أو إله للرزق، وهو عبارة عن مَلَك أو روح يمثّله التمثال الذي صنعوه، فهم يعبدون هذا التمثال ظاهراً؛ لكنّ المعبود حقيقةً هو الروح أو الملك.

كما أنّ من ذهب إلىٰ ألوهيّة النبي عيسىٰ عليه السلام لم يكونوا ليطلبوا الشفاعة منه فقط، بل كانوا يؤمنون بالتثليث؛ فالمسيح هو الله، والله ثالث ثلاثة! وبعض المشركين يقولون: الملائكة بنات الله، وقد فوّض الله لهنّ تدبير أُمور الكون، حيث أشار القرآن الكريم إلىٰ ذلك في أكثر من موضع[٢].

والنتيجة هي: أولاً: كان المشركون يعبدون الأصنام ولديهم شرك في العبادة، وثانياً: فضلاً عن الشرك في العبادة، كان لديهم شرك في الربوبية والمدبّرية.

---

١. يوسف: ٣٩.

٢. النجم: ٢٧، النحل: ٥٧، الصافات: ١٤٩ وغيرها.

الردّ الثالث: بيان المغالطة في الاستدلال

ويتّضح ردّنا الثالث على هذا الدليل بعد تسليط الضوء على المغالطة في الاستدلال المطروح. فأولئك يسعون إلىٰ إثبات أنّ طلب الشفاعة من النبي ﷺ موجب للشرك، وقد استدلّوا لإثبات مدّعاهم بالآيتين السالفتين.

والطريف أنّ هاتين الآيتين غير ناظرتين أساساً إلىٰ موضوع طلب الشفاعة، ففي الآية الأولىٰ يقول المشركون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فحسب اعتقادهم التقرّب إلى الله من آثار عبادة الأصنام، ولم يرد علىٰ ألسنتهم طلب الشفاعة من الأصنام أو توسّطهم لدى الله، بل لم يرد في الآية طلب التقرّب، وغاية ما ذكر العبادة المفضية إلى التقرّب. وعلىٰ فرض حصول طلب التقرّب لكنّه مغاير لطلب الشفاعة التي هي عبارة عن طلب المغفرة والعفو عن الذنوب.

وأيضاً في الآية الثانية: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ لم يرد فيها طلب الشفاعة كما هو واضح. ولمّا لم تتناول هاتان الآيتان موضوع طلب الشفاعة، فكيف يمكن الاستدلال بهما علىٰ ذلك؟ وكيف أنّ الآيات القرآنية تؤكّد علىٰ أنّ شرك المشركين متجسّد بطلب الشفاعة من الأصنام؟

سؤال مطروح

لنسأل هؤلاء: ألا تؤمنون أنّ النبي ﷺ شفيع؟ فحتماً سيجيبون:

بلىٰ «رسول الله شافع ومشفَّع»، وهو الحقّ؛ لأنّ النبي ﷺ والملائكة وأولياء الله يشفعون.

والسؤال هنا: هل ثمة فارق بين جملة: «رسول الله ﷺ شافع مشفَّع» وجملة: ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا﴾؟ فكيف توجب جملة: ﴿هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا﴾ الشرك، ولاتوجبه جملة: «رسول الله شافع ومشفَّع»؟

من الواضح أن لا أحد منهما يوجب الشرك، إذ لم تذكر الآية سوىٰ قول المشركين: ﴿هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا﴾ ولم تتعرّض إلىٰ قضية طلب الشفاعة، فكيف تكون علّةً لشركهم؟ وإذا كان مجرّد قول هذه الجملة دالّاً علىٰ طلب الشفاعة وموجباً للشرك، فينبغي أن يكون قول تلك الجملة بحقّ رسول الله ﷺ دالّاً علىٰ نفس المعنىٰ، وموجباً للشرك كذلك.

قياس باطل

إن تنزّلنا وأعرضنا عن جميع الردود فثمة أمر آخر يجدر طرحه هنا، وهو أنّ قياس طلب شفاعة المسلمين من رسول الله ﷺ أو الأولياء الصالحين علىٰ طلب الشفاعة من الأصنام ـ علىٰ فرض طلبهم لها ـ قياس باطل؛ لأنّ ظاهر الحال أنّ المشركين يعتقدون باستقلالية الصنم لا أنّ الله تعالىٰ أعطاه إذناً للشفاعة، بينما يؤمن المسلمون بأنّ النبي ﷺ والأولياء يشفعون بإذنٍ من الله سبحانه، فهذا قياس مع الفارق.

إذن، جميع الملاحظات التي ذكرها الشيخ محمد بن عبدالوهاب وغيره إنّما هي واردة على المشركين؛ لأنّهم يطلبون الشفاعة من مخلوق جامد لايملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ولم يُعطَ إذنٌ بالشفاعة، وقد صرّح القرآن الكريم أنّ أولئك يستشفعون بالشفيع وهو: ﴿لَايَضُرُّهُمْ وَلَايَنفَعُهُمْ﴾[١]، وهذا لايمكن قياسه على مسألة الشفاعة لدى المسلمين.

فالمسلمون يرون أنّ للنبي صلى الله عليه وآله والملائكة وأولياء الله عليهم السلام قرباً ومنزلةً عند الله سبحانه، وفيما لو أعطاهم الله إذناً بالشفاعة نطلب منهم أن يشفعوا لنا عنده، فلا شبه ـإذن ـ بين الاثنين ليقاس أحدهما على الآخر.

إنّ التأكيد الوافر الذي أبداه القرآن تجاه كلمة «إذْن» ناظر إلى الكفّار والمشركين والجهة المقابلة لهم؛ وإلّا لا أحد من المسلمين، لا في زمن النبي صلى الله عليه وآله ولا في العصور التالية له، ولا موحّد ومتديّن أساساً يدّعي مثل هذا الادّعاء ويقول: لدينا شفعاء يشفعون لنا دونما إذنٍ من الله تعالى.

فلا مجال للمقارنة بين عقيدة الكفّار وعقيدة المسلمين الذين يقولون: يستجيب الله ـإن شاء ـ دعاء نبيّه بحقّ أحد عباده، فيقضي حاجته، ويتجاوز عن خطيئته، ويغفر ذنوبه. فهذا الغفران واستجابة

---

١. يونس: ١٨.

الدعاء ليس حتمي الوقوع، بل يستجيب الله إن شاء وإن اقتضت المصلحة.

الدليل الثالث: دعاء غير الله منهي عنه

ساق البعض دليلاً آخر على مدّعاهم، وهو لايختصّ بموضوع الشفاعة، بل تمسّكوا به في مسألة التوسّل وطلب الحوائج من النبي ﷺ، وهو عبارة عن الاستدلال بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[1].

فلفظ «لاتدعوا» أُخذ من مادة «دعا» بمعنى الدعوة، وثمة نهي في هذه الآية المباركة عن دعوة غير الله. يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب: فقل له: أنت تقرّ أنّ الله فرض عليك إخلاص العبادة؟ فإذا قال: نعم، فقل له: بيِّن لي هذا لذي فرض عليك، وهو إخلاص العبادة لله وحده وهو حقّه عليك، فإنّه لا يعرف العبادة، ولا أنواعها[2].

وعقّب السيد محسن الأمين علىٰ ذلك بأنّ هذا الكلام لايليق ذكره، فهو يتضمّن الإهانة لجميع المسلمين وعلماء الإسلام، لأنّه ادّعىٰ أنّ الطرف المقابل له لايعرف العبادة ولا أنواعها ويجهل مسألة العبادة.

---

١. الجن: ١٨.

٢. كشف الشبهات: ١٤.

ويواصل الشيخ حديثه قائلاً: فبيّنها له بقوله تعالىٰ: ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[١]. إذا علمت بهذا فقل له: هل هو عبادة؟ فـلابدّ أن يقول: نعم، والدعاء مخّ العبادة، فقل له: إذا أقررت أنّها عبادة، ودعوت الله ليلاً ونهاراً، خوفاً وطمعاً، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيّاً أو غيره، هل أشركت في عبادة الله غيره؟[٢]

وخلاصة استدلاله بصورة قضيةٍ صغرىٰ وكبرىٰ، هـو: الدعـاء وطلب الحاجة عبادة، وعبادة غير الله شرك؛ فدعاء غير الله شرك.

ثم أضاف قائلاً: وقل له أيضاً: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلابدّ أن يقول: نعم، فقل له: وهل كانت عبادتهم إيّاهم إلّا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك؟ وإلّا فهم مقرّون أنّهم عبيده، وتحت قهره، وأنّ الله هو الذي يدبّر الأمر، ولكن دعوهم والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة، وهذا ظاهر جداً[٣].

وعلىٰ هذا الأساس، فعندما نخاطب النبي ﷺ أو الوليّ الصـالح بالقول: ياسيدي ومولاي، إشفع لي في يوم الحشر... أو عندما نطلب منه حاجةً من حوائج الدنيا، يدخل جميع ذلك في الدعاء، والآية نهت عن ذلك، وقالت: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾.

---

١. الأعراف: ٥٥.
٢. كشف الشبهات: ١٤.
٣. المصدر السابق: ١٤ ـ ١٥، كشف الارتياب: ٢٣٠ بتفاوت يسير.

معنى الدعاء

وللردّ علىٰ هذا الدليل يجب أن نعرف معنىٰ الدعاء أولاً.

للدعاء معنيان: معنىً عامّ ولغوي، ومعنىً خاصّ وعرفي.

والمعنى اللغوي للدعاء هو مطلق النداء، قال الراغب: «الدعاء كالنداء»[١]، وقد استعمل في القرآن الكريم بهذا المعنىٰ في عدّة مواضع منه، منها قوله تعالى علىٰ لسان نوح عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾[٢].

وفي حياتنا اليومية نقول كثيراً: دعاني فلان، أو دعاني فلان للضيافة أو الحوار أو المناظرة أو المباحثة... فجميع ذلك دعاء.

وقال تعالىٰ في آية أخرىٰ:

﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً﴾[٣].

أي: لاتنادوا النبي صلى الله عليه وآله كمناداة بعضكم لبعض، بل نادوه باحترام. هذا النحو من استعمال النداء ليس بعبادة قطعاً، كما أنّ طلب الناس الحوائج من بعضهم البعض دعاءٌ لكنّه ليس عبادة قطعاً.

واستعملت كلمة «الدعاء» بمعنىٰ السؤال أيضاً، قال الراغب في ذلك بعد ذكر الآية الآنفة: «ودعوته: إذا سألته، وإذا استغثته»[٤].

---

١. المفردات: ١٦٩.

٢. نوح: ٥ ـ ٦.

٣. النور: ٦٣.

٤. المفردات: ١٧٠.

فالإلحاح والاستغاثة من هذا القبيل، كأن تتوسّل بشخصٍ وتقول: أرجوك أن تعمل لي كذا أو أتوسّل إليك أن تصنع لي هذا الشيء... فهذه استغاثة، وهي دعاء لغةً، لكنّها ليست عبادة.

إذن، مطلق الطلب الذي يعمّ النداء والسؤال والاستغاثة التي هي عبارة عن طلبٍ مع إلحاحٍ والتماس ليس هو بعبادة؛ وإلّا لزم من ذلك أن نقول: إنّ النبي نوح عليه السلام عبد قومه!

وللدعاء معنىً خاصّ عرفي غير المعنىٰ اللغوي يعتبر معه عبادةً، وهو ما لو وقف الإنسان أمام خالقه ورازقه، فدعاه وارتجاه معتقداً أنّه المؤثّر والمدبّر الوحيد للأمور. إنّ الطلب من الله سبحانه هو نوع من الخضوع والتذلّل إزاء الخالق والرازق، والربّ والمدبّر للعالم، وهذا الطلب والدعاء عبادة.

لكن ليس كلّ دعاءٍ عبادة، بل بعض أقسام الدعاء عبادة، وهو الدعاء الذي يأتي به الإنسان أمام خالقه ورازقه ومدبّر أموره وإلهه بمنتهى الخضوع والتذلّل، وكذلك ما كان يدعو المشركون أصنامهم ومعبودهم، وكان دعاؤهم عبادة، ذلك أنّهم يؤمنون بكون الصنم والمعبود إلهاً لهم، ومدبّراً لأُمورهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فهرس المصادر

(١) **الخصال:** محمد بن علي ابن بابويه الصدوق، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤٠٣ق.

(٢) **الغدير:** عبدالحسين الأميني، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧ق

(٣) **المحاسن:** أبو جعفر بن محمد خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية، بيروت.

(٤) **المسند:** أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت.

(٥) **المفردات في غريب القرآن:** الراغب الإصفهاني، دار إحياء التراث، بيروت.

(٦) **الميزان في تفسير القرآن:** العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الدار الاسلامي للنشر، قم، ١٩٩٠م.

(٧) **أصول الكافي:** محمد بن يعقوب الكليني، دار الكتب الاسلامية، طهران، ١٣٨٨ق.

(٨) **بحار الأنوار:** محمد باقر المجلسي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٠٣ق.

(٩) **تفسير المنار:** محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣ق.

(١٠) **تفسير نور الثقلين:** علي بن جمعة الحويزي، تصحيح: سيد هاشم الرسولي المحلّاتي، المطبعة العلمية، قم.

(١١) **جامع أحاديث الشيعة:** آية الله السيد محمد حسين الطباطبائي البروجردي، مطبعة مهر، قم، ١٣٩٦ق.

(١٢) **صحيح البخاري:** اسماعيل بن محمد البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ق.

(١٣) **صحيح مسلم:** أبو الحسن مسلم، تحقيق: محمد عبداللطيف، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٣٩٢ق.

(١٤) **غرر الحكم ودرر الكلم:** عبدالواحد الآمدي، تحقيق: مير سيد جلال الدين المحدث، جامعة طهران، ط ٣، ١٩٨١م.

(١٥) **كشف الارتياب:** سيد محسن الأمين، دار الكتب الإسلامية، قم، ١٣٨٢ق.

(١٦) **كشف الشبهات:** محمد بن عبدالوهاب، دار الثقافة للطباعة، ١٣٧٢ق.

(١٧) **مجمع البيان في تفسير القرآن:** الفضل بن الحسن الطبرسي، المكتبة الاسلامية، طهران، ١٣٩٥ق.

(١٨) **مستدرك الوسائل:** الميرزا حسين النوري، مؤسسة آل البيت، ١٤٠٧ق.

(١٩) **نهج البلاغة:** صبحي الصالح، دار الهجرة للنشر، قم، ١٣٩٥ق.

(٢٠) **وسائل الشيعة:** محمد بن حسن الحرّ العاملي، مؤسسة آل البيت، قم، ١٤٠٧ق.

(٢١) **وفاء الوفا:** السمهودي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٣ق.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

تعريف الشفاعة وأقسامها

الفصل الثاني

شروط الشفاعة

الفصل الثالث

الشفاعة ودورها في تطهير الروح والنفس

الفصل السادس

طلب الشفاعة من النبي ﷺ في حياته وبعد مماته

الفصل السابع

طلب الشفاعة في كلام علماء وأئمة أهل السنّة

الفصل الثامن

الشيعة والشفاعة (شبهات وردود)

الشفاعة

حقيقة أم خيال؟

تعتبر مسألة الشفاعة من المسائل التي احتلّت مكانةً مهمّةً في الفكر الإسلامي. فهي بقدر ما تعدّ عاملاً قوياً على توثيق الصلة بين المسلم وربّه من جهة، وبينه وبين الرموز الإسلامية المقدّسة من جهة أُخرى، تشكّل وسيلةً روحية لارتقاء الإنسان المسلم وتكريس الرفعة في سلوكه. وهدف بهذا المستوى لا يرفضه العقل، ولا تنكره الفطرة، ولا يخالف منطق الإيمان الذي جاء به نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ورغم نزول الآيات العديدة فيها، والعشرات من الروايات حولها، ظلّت تعاني على مدى عصور إشكالاتٍ وتساؤلات وشبهات أثارها البعض من جهة تحديد مفهومها وبيان حقيقتها، وتحقّقها خارجاً.

وهذا الكتاب يحاول إثبات صحّة طلب الشفاعة بالأنبياء والأولياء إلى الله سبحانه، بل استحبابها في حياتهم وبعد مماتهم، بالأدلّة الشرعية المعتبرة عند السنّة والشيعة، ودفع ما قيل من تصوّرات خاطئة في هذه المسألة.

الناشر

